وصفهم (١) انه حكيم عليم »

الاستقسام بالازلام

من عادتهم معرفة ما قدر لهم بالاستقسام بالازلام أى القداح فاذا أراد أحدهم سفرا أو غزوا أو تجارة أو أمرا من معاظم الامور ضرب بالقداح وهى ثلاث قطع من الخشب مكتوب على بعضها نهانى ربي وعلى بعضها أمرنى ربى وبعضها غفل كذا قال الفراء فان خرج الآمر مضى لطيته وان خرج الناهى أمسك وان خرج الغفل أجالها عودا . وقيل كان يستقسم بقدحين مكتوب على أحدهما افعل وعلى الثانى لا تفعل. فان خرج افعل مضى وان خرج لا تفعل ترك وقيل كان لا يمضى حتى يخرج له لا تفعل ثلاث مرات فان خرج له مرة افعل ومرة لا تفعل ولم يخلص له أحدهما ثم مضى فى ذلك فقد مضى وهو يرجو ويخاف . وذهب ابن ظفر الى أن الازلام سبعة قداح مكتوب على أحدها نعم وعلى الا خر لا وعلى قدح منكم وعلى قدح من غيركم وعلى قدح ملصق وعلى قدح العقل وعلى قدح فضل العقل وكانت بيد سادن الاصنام فيأتيه ذو الحاجة بدراهم فيسأل الصنم أن يوضح له ماسأل عنه بضرب القداح . وجعلها ابن هشام سبعة أيضا لكنه اسقط فضل العقل وجعل سابعها للمياه اذا أرادوا أن يحفروا المياه ضربوا به فما خرج عملوا به وذكر انها كانت عند الصنم هبل شاءوا من خدمة الاوثان والرجال دون النساء . وكانوا يحرمون ظهور السوائب والبحائر والحوامى وكانوا يحرمون ذكر اسم الله على بعض الانعام فلا يحجون عليها ولا يلبون على ظهورها كما حرموا ذكر اسمه تعالى على ما ذبح للاصنام وجعلوا ما فى بطونها للذكور دون الاناث. وفى الآية من الفقه الزجر عن التشبه بهم فى تخصيصهم الذكور دون الاناث بالهبات حكى البخارى فى التاريخ ان عمرة روت عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال يعمد أحدكم الى المال فيجعله عند ذكور ولده ان هذا الا كما قال الله تعالى « وقالوا ما فى بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا » (١) أى سيجزيهم الله بما كذبوا عليه فى التحليل والتحريم

فكانوا يذهبون اليه اذا أرادوا أمرا انما يستشار فيه ويعطون الذى يضرب بالقداح مائة درهم وجزور فان شكوا فى نسب أحد قربوا من يشكون فى نسبه ثم قالوا يا إلهنا هذا فلان ابن فلان قد أردنا به كذا وكذا فأخرج الحق فيه ويأمرون صاحب القداح أن يضرب بالقداح الموسومة بمنكم ومن غيركم وملصق فان خرج منكم أضافوا نسبه الى أنفسهم وان خرج من غيركم كان حليفا وان خرج عليه ملصق كان على منزلته فيهم لا نسب له ولا حلف واذا تنازعوا فى العقل وهى دية المقتول أحضروا المتهم بالقتل واستقسم لهم الامين بقدحين أحدهما موسوم بالعقل والآخر غفل فان خرج الموسوم بالعقل تحمل الدية وان خرج الغفل لا وان اشتبهوا فيمن يحمل العقل منهم ضربوا بهذين القدحين أيضا فان خرج على قوم العقل برئ منه الآخرون وان عقلوا ففضل شئ فان اختلفوا فيه ضرب بالقدح الموسوم بفضل العقل فان خرج عليه أداه واذا أرادوا معرفة ما فى فعل أمر من خير أو شر أجال لهم أمين القداح قدحى أمرنى ربى ونهانى ربى (١) فان خرج قدح الامر ائتمروا وباشروا المسئول عنه من حرب أو سفر أو زواج أو ختان أو بناء أو نحو ذلك وان خرج قدح النهى أخروا ذلك العمل الى سنة أخرى فاذا انقضت استقسموا مرة أخرى

هذا ماذكره الثقات ويتلخص من كلامهم ان الاستقسام عام وخاص فالعام مايزاوله كل واحد بان يعمد الى ثلاث قداح مكتوب على احدها امرنى ربى وعلى الآخر نهانى ربى والثالث غفل فيضعها فى خريطة ويجيلها ثم يخرج منها واحدا فان خرج الآمر فعل وان خرج الناهى ترك وان خرج الغفل أعاد . والخاص وهو مايراد منه الحكم لا مجرد الاستشارة ويكون لدى سادن الصنم كما اذا أرادوا معرفة من عليه العقل أو غير ذلك . وقال ابن اسحاق كان لهبل سبعة قداح يضرب بها على الميت والعذرة والنكاح وكان قربانه مائة بعير . وكان له حاجب . وكانوا اذا جاءوا هبل بالقربان ضربوا بالقداح وقالوا

---

(١) يروى ان الاستقسام حينئذ بقدحين كتب على احدهما نعم وعلى الآخر لا

انا اختلفنا فهب السراحا ثلاثة ياهبـل فصاحا
الميت والعذرة والنكاحا والمبرئ المريض والصحاحا
ان لم تقله فر القداحا

ولم يقصرها القلقشندى فى صبح الاعشى على سبعة لقوله « كانوا اذا ارادوا فعل امر ولا يدرون ما الامر فيه أخذوا قداحا مكتوبا على بعضها افعل. وعلى بعضها لا تفعل وعلى بعضها نعم وعلى بعضها لا وعلى بعضها خذ وعلى بعضها مر وعلى بعضها سريع فاذا أراد احدهم سفرا مثلا اتى سادن الاوثان فيضرب له بتلك القداح ويقول اللهم أيها كان خيرا له فاخرجه فما خرج له عمل به واذا شكوا فى نسب رجل أجالوا القداح وفى بعضها مكتوب صريح وفى بعضها مكتوب ملحق فان خرج الصريح اثبتوا نسبه وان خرج الملحق نفوه وان كان بين اثنين اختلاف فى حق سمى كل منهما له سهما وأجالوا القداح فمن خرج سهمه فالحق له »

ومن شواهد الاستقسام عند النصب قول طرفة بن العبد

للفتى عقـل يعيش به حيث تهدى ساقه قدمه
أخـذ الازلام مقتسما فأتى اغواها زلمه (١)
عنـد انصاب لها زفـر فى صعيد جمة ادمه (٢)

واخبار استقسامهم كثيرة فمنها ماحكاه الاصبهانى وغيره انهم كانوا يستقسمون عند ذى الخلصة وان امرأ القيس لما قتل بنو أسد اباه حجراً اخذ أزلامه وأتى الصنم ذا الخلصة فاستقسم فخرج له القدح الذى يكره فكسر الازلام وضرب بها وجه الصنم وقال لو كان ابوك قتل ماعقتنى ثم انشد

لو كنت ياذا الخلصة الموتورا مثلى وكان شيخك المقبورا

---

(١) يروى : فاقاض القدح مقتسما و(اغواهما) من الغواية وثنى الضمير فى اغواهما وهو الازلام لان الشعر لحكم قافيته يحتمل ما لايحتمله النثر و(الزلم) واحد الازلام

(٢) الانصاب الحجارة التى كانوا يذبحون عليها و (الصعيد) التراب و (جمة) كثيرة و (ادمه) جلوده يعنى جلود ما حمل الرجل الى الانصاب

لم تنه عن قتل العداة زورا

ثم خرج فظفر بنى أسد . قال ابو المنذر فلم يستقسم أحد عند ذى الخلصة بعد ذلك حتى جاء الاسلام فكان امرؤ القيس أول من أحفره

ومن ذلك ما حكاه ابن اسحاق «أن عبد المطلب بن هاشم شرع فى حفر بئر زمزم فلما تمادى به الحفر وجد فيها غزالين من ذهب وهما الغزالان اللذان دفنت جرهم فيها حين خرجت من مكة ووجد فيها أسيافا قلعية (١) وأدراعا فقالت له قريش يا عبد المطلب لنا معك فى هذا شرك وحق قال لا ولكن هلموا الي أمر نصف بينى وبينكم نضرب عليها بالقداح . قالوا وكيف تصنع قال أجعل للكعبة قدحين ولى قدحين ولكم قدحين فمن خرج له قدحاه على شيء كان له ومن تخلف قدحاه فلا شيء له قالوا أنصفت فجعل قدحين أسودين له وقدحين أصفرين للكعبة وقدحين أبيضين لقريش وضرب صاحب القداح بها عند هبل أعظم أصنامهم وهو الذى عناه أبو سفيان بن حرب يوم أحد حين قال اعل هبل أى أظهر دينك فخرج الاصفران على الغزالين وخرج الاسودان على الاسياف والادراع لعبد المطلب وتخلف قدحا قريش فضرب عبد المطلب الاسياف بابا للكعبة وضرب فى الباب الغزالين من ذهب فكان أول ذهب حليته الكعبة فيما يزعمون

ومنها ان قريشا استقسمت فى غزوة بدر الكبرى عند هبل للخروج لحرب رسول الله فاستقسم أمية بن خلف وعتبة وشيبة فخرج القدح الناهى فاجمعوا المقام حتى أزعجهم أبو جهل وخرج زمعة بن الاسود حتى اذا كان بذى طوى أخرج قداحه واستقسم بها فخرج الناهى عن الخروج فلقى غيظا ثم أعادها الثانية فلقى مثل ذلك فكسرها وقال ما رأيت كاليوم قدحا كذب

ومن الشواهد على استقسام الرؤساء بالازلام قول شملة بن أخضر الضبي

جلبنا الخيل من أطراف فلج ترى فيها من الغزو أقورارا (٢)

---

(١) نسبة الى القلعة بلد ببلاد الهند واليه ينسب السيوف (٢) فلج اسم بلد و (الاقورارا) الضمور والتغير

بكل طمرة وبكل ظرف يزين سواد مقلته المذارا (١)
حوالى عاصب بالرأس منا جبين أغر يستلب الدرارا (٢)
رئيس ما ينازعه رئيس سوى ضرب القداح اذا استثارا

على أن منهم الحازم الذى لا يستشير قداحه بل اذا هم بالامر مضى فيه كجذع بن سنان حيث يقول

أتانى قاشر وبنو أبيه وقد جن الدجى والليل لاحا
وحذرنى أمورا سوف تأتى أهز لها الصوارم والرماحا
سأمضى للذى قالوا بعزم ولا أبغى لذلكم قداحا

وقد حدث الاستقسام بالازلام فيهم بعد أن كانوا يعتمدون فى المعرفة على الرؤيا المنامية . وقد رأى رسول الله صورة ابراهيم واسماعيل وفى أيديهما الازلام فقال لقد علموا أنهما لم يستقسما قط وقد حرمه الله تعالى وجعله رجسا أى مأثما وفسقا فى قوله (انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) وقال (وان تستقسموا بالازلام ذلكم فسق) وانما حرمه لانه تهجم على علم الغيب الذى استأثر به علام الغيوب وقال (لا يعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله) فان الغيب لا يمكن ادراكه بصناعة من الصناعات وافتراء على الله فى قوله أمرنى ربى ونهانى ربى وما يدريه أنه أمره ونهاه . ومن الفسق أيضا الرجوع الى الكهنة والمنجمين لان مفسدته كهذه المفسدة

﴿ الاقسام ﴾

اذا أراد أحدهم فعل أمر أو تركه وخشى أن تهن عزيمته قواها بالحلف لان الحنث يوجب المؤاخذة . فكانوا يحلفون بمعبوداتهم وبشعائر دينهم

---

(١) الطمرة الفرس الكريم و (الظرف) الكريم الطرفين من الامهات والآباء (٢) (الدر) النفس وجمعه الدرار يعنى أنه شجاع يلتهب النفوس

وبما عظم فيه ولما كان قصد تعظيم المحلوف به غاية التعظيم هو داعية البر فى اليمين وهذا نوع من أنواع العبادة وهى لاتليق لغير الله تعالى قال عليه الصلاة والسلام من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت فحرم الحلف بالنبى وبأجد من ذريته وبالكعبة والصالحين ولكن المسلمين خصوصا فى هذه الايام لبسوا الدين مقلوبا وفعلوا ما نهوا عنه (وكان العرب) مع اختلاف عقائدهم ونحلهم يحلفون بالله تعالى وبصفاته لانهم ما عبدوا الاصنام الا لتقربهم اليه بل كان الحلف به أعظم ايمانهم قال النابغة الذبيانى

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

وقال أوس بن حجر

و باللات والعزى ومن دان دينها وبالله ان الله منهن أكبر

ومن الحلف بصفاته تعالى قول عنترة العبسى

قسما بالذى أمات وأحيا وتولى الارواح والاجساما

وقول مهلهل التغلبى

قتلوا كليبا ثم قالوا لا تثب كلا ورب البيت ذى الاحرام

وقولهم لا ورب هذه البنية . (١) لاوقائت (٢) نفسى القصير. وقولهم لا والذى لا أتقيه الا بمقتله (٣) لاوالذى أخرج المذق (٤) من الجريمة (٥) والنار من الوثيمة (٦) لاومقطع القطر . لاوفالق الاصباح . لاومهب الرياح. لا ومنشر الارواح . لا والذى مسحت أيمن كعبته . لا والذى جلد الابل جلودها . لا والذى شق الجبال فسيل والرجال للخيل . لا وبارئ الخلق . لا والذى يرانى من حيث مانصر لا والذى نادى الحجيج له لا والذى رقصن ببطحائه . لا والذى أمد اليه بيد قصيرة . لا والذى كل الشعوب تدينه .

---

(١) كعنبة الكعبة (٢) القائت من القوت يعطيه قليلا قليلا

(٣) أى كل شىء منى مقتل من حيث شاء قتلنى (٤) النخلة (٥) النواه

(٦) هى الموثومة أى المربوطة يريد به قدح حوافر الخيل النار من الحجارة

لا والذى وجهى زمم بيته (١) لا والذى شقهن (٢) خمسا من واحدة لا والذى أخرج قالبة من قوب (٣) وقد أكثروا من الحلف بشعائر الحج ومشاهده لانهم كانوا على اختلاف نحلهم يرون الحج من دين ابراهيم واسماعيل وحلف زهير ابن أبى سلمى بالكعبة فقال

فاقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم

وحلفوا بزمزم والحطيم قال ابن دريد وسمى بالحطيم لان أهل الجاهلية كانوا يحلفون به فيحطم الكاذب وحلف زهير بن أبى سلمى بالمنازل من منى فقال

فأقسمت جهدا بالمنازل من منى وما سحقت فيه المقاديم والقمل

حتى حلفوا بالابل التى تؤم مزدلفة فقالوا لا والراقصات ببطن جمع وبالتى تؤم منى قال أعشى قيس

حلفت له بالراقصات الى منى اذا محرم خلفته بعد محرم

وحلفوا بشهر رجب لتعظيمهم له لانه الشهر الذى كانوا يعتمرون فيه ويذبحون فيه العتيرة وهى الرجبية وحلف الوثنيون بالاصنام وبما ألبسته من الثياب وبالانصاب وهى حجارة كانت فى الجاهلية يهل عليها ويذبح وبما هريق لها أو عليها من الدماء قال مهلهل بن ربيعة

قتلوا كليبا ثم قالوا ارتعوا كذبوا لقد منعوا الجيادر توعا

كلا وانصاب لنا عادية معبودة قد قطعت تقطيعا

وقال طرفة بن العبد يخاطب الملك عمرو بن هند

انى وجدك ما هجوتك والـ ـأنصاب يسفح بينهن دم

وقال النابغة الذبيانى

فلا لعمرو الذى مسحت كعبته وماهريق على الانصاب من جسد (٤)

ما قلت من سيء مما ..... أتيت به اذاً فلا رفعت سوطى الى يدى

---

(١) أى تجاهه وحذاءه (٢) يعنون الاصابع (٣) يعنون فرخا من بيضة

(٤) رواية فلاورب الذى قدزرته حججا و(الجسد) والجساد الزعفران والمراد به هنا الدم

وقال رشيد بن رميض العنزى

حلفت بمائرات حول عوض وأنصاب تركن لدى السعير

وقال المتلمس من قصيدة يهجو بها عمرو بن هند الملقب بالمحرق

أطردتنى حذر الهجاء ولا واللات والانصاب لا تئل (١)

وحلف مهلهل بن ربيعة بالحرام والحل فقال

كذبوا والحرام والحل حتى يسلب الخدر بيضه المحجولا (٢)

وحلف عدى بن زيد وكان نصرانيا بالله والصليب فقال يخاطب النعمان لما حبسه

سعى الاعداء لايألون شرا عليك ورب مكة والصليب

ارادوا كى تمهل عن عدى ليسجن او يدهده فى القليب

وحلفت النصارى بالابيل وهو الناسك والراهب قال فى لسان العرب(وكانوا يعظمون الابيل فيحلفون به كما يحلفون بالله) حتى حلف الاعشى بمسوح الرهبان فقال :

حلفت بثوبى راهب الدير والتى بناها قصى والمضاض بن جرهم

وحلفوا بانفسهم فقالوا لعمرى أى وبقائى ولعمرك قال طرفة بن العبد

لعمرك ما أمرى على بغمة نهارى ولا ليلى على بسرمد (٣)

وحلفت العرب بالآباء قال عروة بن الورد

فلا وابيك لوكا ليوم أمرى ومن لك بالتدبر فى الامور

وكانت قريش تحلف بآبائها فنهاهم النبي عليه السلام عن ذلك بقوله لاتحلفوا بابائكم (وكانوا) يحلفون بالملح والرماد كقول الاعشى فى حرب ذى قار فيما رواه الاصبهانى فى الاغانى

حلفت بالملح والرماد وبالعزى وباللات تسلم الحلقه

---

(١) أطردتنى أى صيرتنى طريدا . ويروى والله والانصاب . و(لا تئل) لاتنجو(٢) الحل بالكسر ما جاوز الحرم (٣) الغمة الكرب و(السرمد) الدائم اى اذا هممت بأمر أمضيته وأمضى همى بالليل ولا ابالى طوله

حتى يظل الهمام منجدلاً ويقرع النبل طرة الدرقه

وقد اختلفوا فى المراد باسحم المقسم به من قول أعشى قيس

رضيعى لبان ثدى ام تحالفا باسحم داج عوض لانتفرق

على سبعة أقوال ذكرها ابن السيد البطليموسى فى الاقتضاب أولها هو الرماد وكانوا يحلفون به قال الشاعر

حلفت بالملح والرماد وبالنـــار وبالله تسلم الحلقـة

حتى يظل الجـواد منعفرا وتخضب النبل غرة الدرقه

(ثانيها) هو الليـل (ثالثها) هو الرحم (رابعها) هو الدم لانهم كانوا يغمسون ايديهم فيه اذا تحالفوا حكى هذه الاقوال الاربعة يعقوب وحكى غيره وهو (الخامس) انه حلمة الثدى وقيل وهو (السادس) زق الخمر وقيل وهو (السابع) دماء الذبائح التى كانت تذبح للاصنام وجعله اسحم لان الدم اذا يبس اسود قال ابن السيد وابعد هذه الاقوال من قال انه الرماد لان الرماد لايوصف بانه اسحم ولا داج وانما يوصف بأنه أورق وممن ذكر حلفهم بالنار ابن قتيبة فى ابيات المعانى عند الكلام على نار التحالف حيث قال كانوا يحلفون بالنار وكانت لهم نار يقال أنها كانت بأشواف اليمن لها سدنة فاذا تفاقم الامر بين القوم حلف بها انقطع النزاع بينهم وكان اسمها هولة والمهولة وكان سادنها اذا أتى برجل هيبـه من الحلف بها ولها قيم يطرح فيها الملح والكبريت فاذا وقع فيها استشاطت فيقول هذه النار قد تهددتك فاحلف فان كان مريبا نكل وان كان بريئا حلف قال أوس بن حجر يصف عيرا على مرتفع من الارض

أذا استقبلته الشمس صد بوجهه كما صد عن نار المهول حالف (١)

وقال الكميت

هم خوفونا بالعمى هوة الردى كما شب نار الحالفين المهول

وقال ابو عبيدة كان فى الجاهلية لكل قوم نار وعليها سدنة وكان اذا وقع بين الرجلين خصومة جاء من ثبت عليه اليمين الى النار فيحلف عندها

---

(١) كحدث المحلف

وكان السدنة يطرحون بها ملحا من حيث لا يشعر يهولون بها عليه قال الكميت وذكر أمراة

فقد صرت عما لها بالمشيب زوالا لديها هو الازول
كهولة ما أوقد المحلفون لدى الحالفين وما هولوا (١)

وفى القاموس « التهويل شيء كان يفعل فى الجاهلية اذا أرادوا أن يستحلفوا انسانا أوقدوا نارا ليحلف عليها وكان السدنة يطرحون فيها ملحا من حيث لا يشعر يهولون بها عليه والجمع التهاويل » . والتحليف عند النار أو بها أثر من آثار المجوسية سرى لهم من مجاورتهم لفارس

وحلفت الكهان بما جل قدره وعظم خطره كالسماء والارض والليل والنهار والشمس والقمر وامتازوا عن غيرهم بكثرة الايمان فى صدر كلامهم وأخبارهم بالمغيبات كقول سلمى الهمدانية الحميرية

والخفو والوميض (٢) والشفق والاعريض (٣) والقلة والحضيض ان خزيما لمنيع الجيز (٤) وقول زبراء أمة خويلة والليل الغاسق واللوح (٥) الخافق والنجم الطارق والمزن الوادق ان شجر الوادى ليأدوا (٦) ختلا وقول الكاهن الخزاعى لما تنافر اليه أمية بن عبدشمس وهاشم بن عبد مناف والقمر الباهر. والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو من طائر وما اهتدى بعلم مسافر من منجد وغائر لقد سبق هاشم أمية الى المفاخر ولامية أواخر . ولقد اقسم الله فى القرآن بكثير من الازمنة والامكنة والاشياء وحاشاه ان يحتاج فى تأكيد اخباره الى القسم بشيء هو صنع قدرته بل اقسم لاغراض منها تقرير وجود المقسم به فى عقل من انكره وتعظيم شأنه عند من احتقره أو لينبه الغافل الى موضع العبرة فيه او غير ذلك من الاغراض الشريفة

---

(١) هاله هولا افزعه كهوله فاهتال

(٢) الخفو اللمعان الضعيف (والوميض) اشد من الخفو (٣) الاعريض حجارة النورة (٤) الجيز الناحية (٥) اللوح بضم اللام الهواء بين السماء والارض واللوح بفتح اللام العطش (٦) ادوت له ادوا ختلته

أما الحلف بالطلاق فما كانت العرب تعرفه ولا تستحلف به وفى محاضرات الادباء : واول من استحلف به ابن مسلمة وكان واليا على كرمان استحلف جنده بالطلاق فقال بعضهم

رايت هذيلا احدثت فى طلاقها طلاق نساء لم يسوقوا لها مهرا

وقيل ان اول من استحلف بالطلاق العباس بن عبد المطلب استحلف الانصار ليلة العقبة حين اخذ عليهم البيعة لرسول الله « وبعد صدور ذلك عن العباس خاصة وعن العرب عامة لانهم لم يكونوا يذكرون الطلاق الا عند ارادة حل عقدة الزواج وانى لم اعثر على ذكر ذلك فى سيرة من السير ولو صح لنقل واستفاض . وكانت بيعة رسول الله ان يقول لمن بايعه بايعتك او ابايعك على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره فاحدث الحجاج كما قال ابن قيم الجوزية بيعة غير هذه تتضمن اليمين بالله تعالى والطلاق والعتاق وصدقة المال والحج و(كانوا) يغلظون الايمان بالحلف عند الامكنة المحترمة كالانصاب وشاهده قول طرفة بن العبد

فأقسمت عند النصب انى لهالك بمتلفة ليست بغبط ولا خفض(١)

او مكة كقول زهير بن ابى سلمى

فتجمع أيمن منا ومنكم بمقسمة تمور بها الدماء (٢)

او الحطيم وفى القاموس « والحطيم حجر الكعبة او جداره او ما بين الركن وزمزم والمقام وزاد بعضهم الحجر او من المقام الى الباب او ما بين الركن الاسود الى الباب الى المقام حيث يتحطم الناس للدعاء وكانت الجاهلية تتحالف هناك »

وكانوا يحرصون على البر فى اليمين وعدم الحنث فيها حتى لقد زعم علماء كندة كما حكاه الاصبهانى فى الاغانى ان جد امرئ القيس وهو الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار بن معاوية بن ثور وهو كندة خرج الى الصيد

---

(١) المتلفة المفازة و (بغبط) أى تغتبط (٢) المقسمة موضع القسم وأراد بها مكة حيث تنحر البدن فتسيل دماؤها

فألظ بتيس (١) من الظباء فأعجزه فآلى اليه ألا يأكل اولا الا من كبده فطلبته الخيل ثلاثا فأتى بعد ثالثه وقد هلك جوعا فشوى له بطنه فتناول فلذة من كبده فأكلها حارة فمات وفى ذلك يقول الوليد بن عدى الكندى فى بنى بجيلة

فشووا فكان شواءهم خبطا له ان المنية لا تجل جليلا

و(كانوا) لايتركون المحلوف عليه الا اذا وجدوا مخرجا من اليمين. وشاهده ماذكره ابن رشيق فى العمدة من ان المنذر بن ماء السماء حلف فى يوم اوارة الاول ليقتلن بكرا على راس اوارة حتى يلحق الدم بالحضيض فشفع لهم رضيع المنذر مالك بن كعب العجلى وقال للمنذر انا اخرجك من يمينك فصب الماء على الدم فلحق الارض وبر يمين المنذر فكف عن القتل ومارووى ان الحارث ابن عباد آلى الا يصالح تغلب حتى تكلمه الارض فلما كثرت وقائعه فى تغلب ورات تغلب انها لا تقوى عليه حفروا سربا تحت الارض وادخلوا فيه رجلا وقالوا اذا مر بك الحارث فغن بهذا البيت

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض

فلما أتى الحارث على ذلك الرجل غنى بذلك البيت فقيل للحارث برّ قسمك فأبق بقية قومك ففعل واصطلحت بكر وتغلب (وكانوا) يخافون عقوبة الله فى الحنث ولا نعلم من تجرأ على الله بالحلف حانثا قبل امرئ القيس فى قوله

فقلت يمين الله أبرح قاعدا وان قطعوا رأسى لديك وأوصالى (٢)

حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا فما ان من حديث ولا صالى

ولقد نحا نحوه الشماخ بن ضرار الغطفانى فى الاسلام فقال

وجاءت سليم قضها بقضيضها تمسح حولى بالبقيع سبالها (٣)

يقولون لى يا احلف ولست بحالف أخادعهم عنها لكيما أنالها (٤)

---

(١) الظ به لازمه ولم يفارقه (٢) تعارفوا يمين الله حلفا به تعالى (٣) قضها بقضيضها بالنصب اى منقضاً آخرهم على اولهم و (البقيع) موضع بالمدينة و(السبال) جمع سبلة وهى مقدم اللحية

(٤) عنها أى عن الحلفة المفهومة من احلف اى يقولون احلف فأقول

ففرجت همّ النفس عنى بحلفة كما قدت الشقراء عنها جلالها (١)

يقول كشفت هم النفس عنى باليمين الكاذبة وخرجت من الهم كما خرجت الفرس الشقراء من جلالها . ومثله قول بعضهم

سألونى اليمين فارتعت منها ليفروا بذلك الانخداع
ثم ارسلتها كمنحدر السيـــل تعالى من المكان اليفاع

ومثله قول ابن الرومى

وانى لذو حلف كاذب اذا ما اضطررت وفى الحال ضيق
وهل من جناح على مسلم يدافع بالله ما لا يطيـق

﴿ التحالف ﴾

التحالف التعاقد . ولقد دعانا لذكره ما يكون عنـده من الاقسام بما هو محترم دينا فقد كانت قبائلهم لكثرة شنهم الغارات وطلبهم الثارات ووقوع العداوة والبغضاء فيما بين بعضهم وبعض تحتاج القبيلة لحفظ كيانها ان تتحالف مع قبيلة او اكثر حسبما تقتضيه حاجتها الى البقاء او رغبتها فى الانتصار على الاعداء وقد يكون التحالف لكف القتال والصلح بعد النضال . وكانوا يغمسون ايديهم فى دم أو خلوق أو رب او غير ذلك عند الحلف كناية عن صيغتهم بصيغة واحدة فمن التحالف بغمس اليد فى الدم ما كان من تحالف قبائل عبد الدار ومخزوم وعدى وسهم وجمح فانهم عند ما تحالفوا على الا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً اخرجوا جفنة مملوءة دم جزور نحروها وقالوا من ادخل يده فى دمها فلعق منه فهو منا ففعلوا ذلك فسموا لعقة الدم لذلك

ومن ذلك ايضاً ما كان من امر الدم الذى قربوه عندما ارادوا الحلف مع الهجرس بن كليب وذكر خبر ذلك الاصفهانى فى الاغانى قال

لا احلف حتى يقبلوها منى فاحلف فتنقطع الخصومة (١) قدت شقت والجل بالضم وبالفتح ما تلبسه الدابة لتصان به

« ان جساسا لما قتل كليبا وكانت اخت جساس تحت كليب فرجعت الى اهلها ووقعت الحرب بين الفريقين زمنا طويلا ثم صاروا الى الموادعة بعد ما كادت القبيلتان تتفانيان فولدت اخت جساس غلاما سمته الهجرس زياد جساس فكان لا يعرف ابا غيره فزوجه ابنته فوقع بين الهجرس وبين رجل من بنى بكر بن وائل كلام فقال البكرى ما انت بمنته حتى نلحقك بأبيك فأمسك عنه ودخل الى امه كئيبا فسألته عما به فأخبرها الخبر فلما آوى الى فراشه ونام الى جنب امراته وضع انفه بين ثديها فتنفس تنفسة تنفط ما بين ثدييها من حرارتها فقامت الجارية فزعة قد اقلقتها رعدة حتى دخلت على ابيها فقصت عليه قصة الهجرس فقال جساس ثائر ورب الكعبة وبات جساس على مثل الرضف حتى اصبح فارسل الى الهجرس فأتاه فقال له انما انت ولدى وعنى بالمكان الذى قد علمت وقد زوجتك ابنتى وانت معى وقد كانت الحرب فى ابيك زمانا طويلا حتى كدنا نتفانى وقد اصطلحنا وتحاجزنا وقد رايت ان تدخل فيما دخل فيه الناس من الصلح وان تنطلق حتى نأخذ عليك مثلما اخذ علينا وعلى قومنا فقال الهجرس انا فاعل ولكن مثلى لا يأتى قومه الا بلأمته وفرسه فحمله جساس على فرس واعطاه لأمة ودرعا . فخرجا حتى اتيا جماعة من قومهما فقص عليهم جساس ما كانوا فيه من البلاء وما صاروا فيه من العافية . ثم قال وهذا الفتى ابن اختى قد جاء ليدخل فيما دخلتم فيه ويعقد ماعقدتم . فلما قربوا الدم وقاموا الى العقد اخذ الهجرس بوسط رمحه ثم قال . اما وفرسى واذنيه وسحى ونصليه . وسيفى وغراريه لايترك الرجل قاتل ابيه وهو ينظر اليه ثم طعن جساسا فقتله ثم لحق بقومه » . ومن ذلك ما كان من بكر بن وائل وذلك ان جساس بن مرة لما قتل كليبا اخذه ابوه فأوثقه رباطا وجعله فى بيت ثم دعا بطون بكر بن وائل واستشارهم فى اسره . فقال سعد بن مالك بن ضبيعة البكرى لا والله مانعطى تغلب جساسا ولنقاتلن دونه حتى نفنى جميعا فدعا بجزور فنحرت ثم تحالفوا على الدم . ومن ذلك ماقيل ان خثعم وهم بطن من انمار سموا بذلك من التخثعم وهو التلطخ بالدم وذلك انهم نحروا بعيرا

وغمسوا ايديهم فى دمه واحتلفوا عليه

ومن التحالف بغمس اليد فى الخلوق ما كان من امر بنى عبد مناف و بنى اسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب و تيم بن مرة والحارث بن فهر فانهم تحالفوا على النصرة وغمسوا ايديهم فى جفنة مملوءة طيبا ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيدا على انفسهم فسموا بالمطيبين لذلك . ومن ذلك ما روى ان منشم التى ضرب المثل بعطرها فقيل اشأم من عطر منشم ودقوا بينهم عطر منشم كانت امراة عطارة تبيع الطيب فكانوا اذاقصدوا الحرب غمسوا ايديهم فى طيبها وتحالفوا عليه بأن يستميتوا فى تلك الحرب ولا يولوا أو يقتلوا

ومن التحالف بغمس اليد فى الرب ما كان من أمر بنى عبد مناة بن اد بن طابخة وهم تيم وعدى وعكل وثور فانهم غمسوا أيديهم فى الرب فى حلف على بنى ضبة فلقبوا بالرباب كذا فى العقد الفريد وفى القاموس والرباب احياء ضبة لانهم أدخلوا أيديهم فى رب وتعاقدوا ـ والرب بالضم سلافة خثارة كل ثمرة بعد اعتصارها وثفل السمن و (كانوا) يوقدون نارا عند التحالف وذكرها الجاحظ فى البيان والتبيين فقال : وكانوا يتحالفون على النار و يتعاقدون ويأخذون العهد المؤكد واليمين الغموس مثل قولهم ماسرى نجم وهبت ريح وبل بحر صوفة وخالفت جرة درة . ولذلك قال الحارث بن حلزة اليشكرى .

واذكروا حلف ذى المجاز وماة ... دم فيه العهود والكفلاء

حذر الخون والتعدى وهل تنـ ... ـقض ما فى المهارق الاهواء (١)

وقال فى كتاب الحيوان « كانوا لايعقدون حلفهم الا عند نار فيذكرون عند ذلك منافعها و يدعون الله بالحرمان والمنع من منافعها على الذى ينقض عهد الحلف ويخيس بالعهد ويقولون فى الحلف الدم الدم (٢) والهدم الهدم

(١) الخون الخيانة ويروى الجور و (المهرق) الصحيفة جمعه مهارق

(٢) قال ابن قتيبة : كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار دمى دمك وهدمى هدمك أى ما هدمت من الدماء هدمته انا ويقال أيضا بل الدم الدم والهدم الهدم وأنشد (ثم الحقى بهدمى ولدمى) فالدم

(بحركون الدال فى هذا الموضع) (١) لا يزيده طول الشمس الا شدا وطول الليالى الا مدا مابل البحر صوفة وما أقام رضوى فى مكانه ان كان جبلهم رضوى وكل قوم يذكرون جبلهم وربما دنوا منها حتى تكاد تحرقهم ويهولون على من تخاف عليه الغدر بحقوقها ومنافعها والتخويف من حرمان منفعتها . ولقد يحالفت قبائل من مرة بن عوف عند نار فدنوا منها حتى محشتهم فسموا المحاش وربما تحالفوا وتعاقدوا على الملح قال الشاعر

حلفت لهم بالملح والقوم شهد وبالنار واللات التى هى أعظم

والملح شيئان أحدهما المرقة والآخر اللبن وأنشدوا لشتيم بن خويلد الغزارى

لا يبعد الله رب العباد والملح ما ولدت خالده

وانشدوا فى قول أبى الطمحان

وانى لارجو ملحها فى بطونكم وما بسطت من جلد أشعث أغبرا

وذلك أنه كان جاورهم فكان يسقيهم اللبن كانه يقول كنتم مهازيل والمهزول يتقشف جلده وينقبض فبسط ذلك من جلودكم » قال ابن السيد البطليوسى ولانهم كانوا يتحالفون على النار ذكر اعشى بكر النار عند المحالفة فى قصيدته التى امتدح بها المحلق حيث قال

لعمرى قد لاحت عيون كثيرة الى ضوء نار فى يفاع تحرق

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

رضيعى لبان ثدى أم تحالفا باسحم داج عوض لا نتفرق

جمع لادم وهم أهله الذين يلتدمون عليه اذا مات وهو من لدمت صدره اذا ضربته

(١) قال ابن هشام الهدم بفتح الدال الحرمة وانما كنى عن حرمة الرجل وأهله بالهدم لانهم كانوا أهل نجعة وارتحال ولهم بيوت يستخفونها يوم ظعنهم فكلما ظعنوا هدموها والهدم بمعنى المهدوم كالقبض بمعنى المقبوض ثم جعلوا الهدم وهو البيت المهدوم عبارة عما حوى فهو كقولهم هدمى هدمك أى رحلتى مع رحلتك أى لا أظعن وأدعك وأنشد يعقوب (كانها هدم فى الجفر منقاض)

وعلل العسكرى تحالفهم على النار بأن منفعتها تختص بالانسان لا يشاركه فيها غيره من الحيوان. وأرى ان حلفهم بالنار وتعاقدهم عليها أثر من آثار الديانة المجوسية سرى اليهم من مجاورتهم لفارس ثم رأيت ابن عبد ربه قال فى العقد الفريد فى بيت الاعشى المتقدم « قوله تقاسما باسحم داج يقول تحالفا على الرماد وهذا شئ تفعله الفرس لا يتفرقوا أبد الدهر » فاذا كان تحالفهم على الرماد الذى هو أثر النار المقدسة جاءهم من مجاورتهم الفرس فلان يكون تحالفهم على النار جاءهم من مجاورتهم الفرس من باب أولى

﴿ الدعاء ﴾

العربى ككل انسان ذى دين اذا نزل به مكروه لجأ الى معبوده فى كشف الضر عنه واذا أصابه قوى بمصيبة تضرع لبارئه أن ينتقم له ممن ظلمه

وكانوا يعتقدون أن من دعى عليه فاضطجع لم تستجب فيه دعوة الداعى وشاهد ذلك ماحصل عند دعوة خبيب بن عدى وذلك انه قدم رهط من عضل والقارة وهما قبيلتان من الهون بن خزيمة بن مدركة على رسول الله فقالوا يا رسول الله ان فينا اسلاما فابعث الينا من يفقهوننا فى الدين فبعث اليهم ستة نفر منهم خبيب بن عدى فغدروا بهم وباعوا خبيبا من قريش بأسير من هذيل كان بمكة فابتاع خبيبا حجير بن أبى اهاب التميمى لعقبة بن الحارث بن عامر ليقتله بأبيه فأقام فى أيديهم حتى انقضت الأشهر الحرم ثم خرجوا به الى التنعيم ليصلبوه ورفعوه على خشبة وقتلوه طعنا بحربة قال ابن اسحاق « فلما أوثقوا خبيبا قال اللهم احصهم عددا واقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحدا ثم قتلوه رحمه الله فكان معاوية بن أبى سفيان يقول حضرته يومئذ فيمن حضره مع أبى سفيان فلقد رأيته يلقينى الى الارض فرقا من دعوة خبيب وكانوا يقولون ان الرجل اذا دعى عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه »

﴿ الصابئون ﴾

ينسب الصابئون دينهم الى سيدنا نوح والى ابراهيم الخليل بالتلقى عن نوح

وعن ادريس ومنهم عبدة الاصنام والكواكب والفئة الباقية منهم على معتقدها الاهى بعد أن مزجته بالعقليات يتوجهون فى عبادتهم للقطب الشمالى ويصلون ثماني ركعات عند ظهور شفق الشمس الشروق وخمسا وقت الزوال ومثلها وقت غروب الشمس يسجدون فى كل ركعة منها ثلاث سجدات بلا انحناء ويتلون فى قيامهم وسجودهم كلمات تشتمل على مناجاة ودعوات واستغفار ويصومون فى كل سنة ثلاثين يوما عدد ما تقطعه الشمس فى كل برج من بروجها يمسكون فيها عن الطعام والشراب من شفق شروق الشمس الى شفق غروبها ويفطرون على غير اللحوم من الالبان والنباتات الا ماحرم منها عندهم يصومون من الثلاثين يوما أربعة عشر يوما متتالية فى فصل الشتاء موافقة لاعداد الكواكب السبعة وأفلاكها وسبعة أيام فى الربيع موافقة لاعداد الكواكب وحدها وتسعة ايام فى أواخر الصيف موافقة للافلاك السبعة مع فلكى الثوابت والمحيط ويقدمون الضحايا فى هياكلهم ومعابدهم للسدنة والفقراء ويعظمون الكواكب لاعتقادهم أنها أعظم أثر الهى فعال فى الاجرام السفلية ويمنعون توريث الفاسق من العدل ويعتقدون بعث الارواح لا الاجسام وطهارة النفس العاصية بعد تعذيبها ثلاثة آلاف سنة وان الرسل لم يبعثهم الله بل هم ملهمون من المجردات وان الخير من الله والشر من النفوس وان الله لا تدركه الابصار لا فى هذه الدار ولا فى الدار الآخرة وحرموا تعذيب الحيوان وقتله الا ما أحل أكل لحمه وكلاهما ثم لا يكفر الا بالضحايا المبينة فى كتبهم . ذلك هو الاصل ثم تعددت المذاهب واختلفت فبعضها يحرم من النبات والحيوان ما أحله الآخر وبعضها يحل زواج امرأة الاب التى لم تعقب منه والبعض يحرمها مطلقا وبعضها يوجب غسل جراحات القتيل عند دفنه والآخر يحرمه الى غير ذلك من الفروع ثم اشتغلوا بالاهيات الحكماء وكتب الفلاسفة على أنها كتب تعليم وارشاد ككتب الرسل والصابئون يعتقدون فى الانواء اعتقاد المنجمين فى السيارات حتى لا يتحرك أحدهم ولا يسكن ولا يسافر ولا يقيم الا بنوء من الانواء ويقول مطرنا

بنوء كذا وهم ينقسمون الى مؤمن وكافر ولذلك ذكرهم الله تعالى فى الامم الاربع الذين تنقسم كل أمة منهم الى ناج وهالك فى قوله (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون) فذكرهم فى آية الوعد بالجنة لذلك ولما ذكر المجوس والمشركين وليس منهم سعيد حكم عليهم بالفصل بينهم فى قوله (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة) وحران دار الصابئة وهم فرق فصابئة حنفاء وصابئة مشركون وصابئة فلاسفة وصابئة يأخذون محاسن ما عليه اهل الملل والنحل من غير تقيد بملة ومنهم من يقر بالنبوات جملة ويتوقف فى التفصيل ومنهم من يقر بها جملة وتفصيلا ومنهم من ينكرها جملة وتفصيلا

والمشركون منهم يعبدون الله بالتقرب للكواكب والعلويات بأنواع للعبادة من التضرع والابتهال بالدعوات والصلوات وذبح القرابين والبخور والعزائم لتستمد نفوسهم منها بغير واسطة الرسل وأقاموا لها الهياكل للعبادة فكان كفرهم لعبادة العلويات والكواكب

عبادتهم الكواكب وآثار عبادتهم لها

نظر فريق من الناس الى الكواكب نظر المتقدمين من علماء النجوم من حيث تأثير الكواكب فى هذا العالم فجعلوا الموجودات الارضية أثرا للشمس عند قوم وللكواكب بتوزيع التأثير فيها عند آخرين وهذه الطائفة ترى الكواكب مدبرة لهذا العالم وعنها يصدر ما فيه من خير وشر وسعادة ونحس وغير ذلك بسبب أوضاع الكواكب من التثليث والتسديس والتربيع ومقارنة كوكبين أو أكثر من الكواكب السبعة السيارة فى درجة واحدة من برج واحد ومن الصابئين من عدل عن معتقده الالهى فاعتقد التأثير للكواكب وهؤلاء ثلاث فرق (الفرقة الاولى) ذهبت الى أن الكواكب واجبة

الوجود لذاتها غير محتاجة الى مخصص و(الفرقة الثانية) ترى أن الكواكب آلهة ولكل منها عمل قائم به فى هذا العالم يصدر عنه لا يقدر عليه غيره وانها أبدية الوجود أزلية الاولية تجرى أحكامها لا لغاية (والفرقة الثالثة) ترى أن لهذه الكواكب والافلاك الهاً مبدعا أعطاها قدرة وارادة ذاتية نافذة فى هذا العالم وفوض اليها تدبيره وهذه الطوائف كان لها عصبيات فى بلاد العرب فدانت العرب بهذا الدين واعتقدته وبنوا الهياكل العظيمة للشمس وقربوا لها القرابين وحجوا اليها وذبحوا لها الذبائح واعتكفوا عندها خاضعين عابدين وأول من دان بهذا الدين من العرب قبائل سبأ الحميرية فلما تهدمت سدودهم وتخربت أراضيهم تفرقوا فى بلاد العرب وقبائلها فانتشر دينهم فى القبائل التى نزلوا بها أو جاوروها والبطون التى سكنوا معها وعاشروها حتى شاع فى بلاد العرب وانتقل منها الى مجاوريهم أهل الحبشة والشأم . ومن قبائل سبأ قوم بلقيس وقد حكى القرآن حديث الهدهد لسيدنا سليمان عبادتها وقومها فى قوله « وجئتك من سبأ بنبأ يقين انى وجدت امرأة تملكهم واوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون » وعبدت ثمود الشمس وكانوا بين الحجاز والشام بأرض الحجر فدعاهم صالح لعبادة الله تعالى وهدم هياكل الشمس فما آمن به الا قليل . وأخص أنواع عبادتهم للشمس كانت بالسجود لها عند شروقها وعند غروبها وعند توسطها السماء فلهذا نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فى هذه الاوقات قطعا لمشابهة الكفار ظاهرا وسدا لذريعة الشرك

وبعض كنانة كانت تعبد القمر والدبران وبنو لخم وجرهم كانوا يسجدون للمشترى ومن العرب من عبد عطارد وبنو طيىء عبد بعضهم سهيلا وبعضهم الثريا وهى عدة كواكب مجتمعة وبعض قبائل ربيعة عبدوا المرزم كمنبر (والمرزمان نجمان مع الشعريين يسمى أحدهما كف الكلب وهو يتبع الشعرى العبور وثانيهما هو الكوكب الاخفى من كوكبى الذراع) وطائفة من تميم عبدوا الدبران وبعض قبائل لخم وخزاعة وقريش عبدوا الشعرى العبور

وهي الشعرى اليمانية ذكر بعضهم ان اول من سن لهم ذلك أبو كبشة وجزء ابن غالب جد وهب بن عبد مناف وهو أبو آمنة أم نبينا عليه السلام فلما بعث الرسول وخالف العرب فى عبادتهم الاوثان دعوه بابن أبى كبشة (١) لمخالفته لهم كمخالفة أبى كبشة لقومه فى عبادة الشعرى

قال ابن قتيبة « وكان قوم فى الجاهلية عبدوا الشعرى العبور وفتنوا بها وكان أبو كبشة الذى كان المشركون ينسبون اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من عبدها وقال قطعت السماء عرضا ولم يقطع السماء عرضا غيرها وعبدها وخالف قريشا فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا الى عبادة الله وترك عبادة الاوثان قالوا هذا ابن أبى كبشة أى شبهه ومثله » وخص الله الشعرى بالذكر فى قوله « وانه هو رب الشعرى » اما لعبادة كثير منهم لها واما للاشعار بأن النبى عليه السلام ان وافق أبا كبشة فى مخالفته دين قومه فانه يخالفه فى أن دين أبى كبشة باطل ودين محمد الحق لعبادته الله تعالى

أما آثار عبادتهم للكواكب فمنها تسميتهم أنفسهم باسماء مضافة لها بالعبودية كعبد شمس وعبد المشترى فان ذلك دليل على عبادتهم لها ومنها تسميتهم للشمس بالاهة والالاهة قال الشاعر

تروحنا من اللعباء عصرا واعجلنا الالاهة أن تؤوبا(٢)

قال الفارسى سموها الاهة على نحو تعظيمهم لها وعبادتهم اياها وعلى ذلك نهاهم الله عز وجل عن عبادتها وأمرهم بالتوجه فى العبادة اليه دون ماخلقه وأوجده بعد ان لم يكن فقال « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن »

---

(١) فى القاموس وكان المشركون يقولون للنبى ابن أبى كبشة شبهوه بأبى كبشة رجل من خزاعة خالف قريشا فى عبادة الاوثان أو هى كنية وهب بن عبد مناف جده صلى الله عليه وسلم من قبل أمه لانه كان نزع اليه فى الشبه أو كنية زوج حليمة السعدية أو كنية عم ولدها (٢) تروحنا سرنا وقت الرواح وهو العشى أو من الزوال الى الليل و(اللعباء) اسم مكان و (اعجلنا) سبقنا

ومن آثار عبادة الشمس مايفعله الغلام اذا سقطت سنه وذلك انه كان اذا سقطت له سن أخذها بين السبابة والابهام واستقبل الشمس اذا طلعت وقذف بها وقال : ياشمس أبدليني بهاسنا أحسن منها ولتجر في ظلمها أياتك أويقول اياؤك وهما جميعا شعاع الشمس زعموا انه يأمن على اسنانه العوج اذا صنع ذلك . والى هذا أشار شاعرهم

شادن يجلو اذا ما ابتسمت عن اقاح كأقاح الرمل غر
بدلته الشمس من منبته برداً أبيض مصقول الاشر (١)

وقال طرفة بن العبد البكرى يصف ثغر محبوبته

سقته أياة الشمس الا لثاته أسف ولم تكدم عليه بأثمد(٢)

وقال آخر

وأشنب واضح عذب الثنايا كأن رضا به صافى المدام
كسته الشمس لونا من سناها فلاح كأنه برق الغمام

وقال آخر

بذى أشر عذب المذاق تفردت به الشمس حتى عاد أبيض ناصعا

ووجه كون هذه العادة من آثار عبادة الشمس ان الشمس كانت من معبوداتهم فى الجاهلية والعبد يطلب من معبوده سؤله والاباء يلقنون عقائدهم لابنائهم فالظاهر أن يكون عابد الشمس علم ولده أن يسأل معبوده الشمس أن تبدله بسنه التى سقطت سنا أخرى خيرا منها بريئة من الفساد والعوج ويكون الولد قد امتثل أمر والده فسمعه غيره من الابناء الذين لم تكن الشمس معبودة لهم ولا لاباءهم فقلدوه . وبهذا البيان لا تكون هذه العادة من الاوابد التى

---

(١) أشر الاسنان التحزيز الذى يكون فيها خلقة ومستعملا يقال أشرت المرأة أسنانها حززتها وهذا كان من صنيعهم (٢) أى ثغرها براق الالثاته فانها حواء و (أسف) ذر عليه و (الاثمد) الكحل و(اللثاث) اللحم الذى تنبت فيه الاسنان و(اياة الشمس) ضوؤها و (لم تكدم) لم تعض و(باثمد) متعلق بأسف أى ذر الاثمد على اللثاة والشفاه وكانت تلك عادتهم التى يستحبونها

لا يفهم معناها ولا يزال الخلف ينقل هذه العادة عن السلف فمن الولد ان اليوم من اذا سقطت سنه رمى بها فى عين الشمس وقال « ياشمس ياشموسة خذى سنة الحمار وهاتى سنة العروسة »

﴿ المجوسية والزندقة ﴾

المجوس يعتقدون نبوة ابراهيم الخليل وقد بحثوا فى كتب الحكماء مقتصرين على مبحثى التكوين والخير والشر فنظروا فى مبحث التكوين الى انفصال الحرارة التكوينية من ممكن الصادر الاول ثم تدرجها الى الحرارة المركزية بالنسبة لبطن الارض ومحيط سطحها وبها صارت الارض ذات رواب وجبال وصحارى وجزائر ونظروا للانسان من حيث تركيبه وأصل نشأته فجعلوه ابن الارض التى هى بنت الحرارة المقابلة عندهم للقدرة الالهية فاتخذوا النار من حيث هى أثر الاله وفيها صفته التكوينية دالا على معبود ومع تقادم الزمن وكثرة تصرف الرؤساء الدينيين فى هذا الاصل اختلفوا فى الاعتقاد حتى قالت طائفة منهم أن النار معبود قائم بذاته ونظر قدماؤهم فى مبحث الخير والشر لقول الحكماء ان البارى بتوحيد ذاته جهة واعتبارا يستحيل صدور التكثر عنه لانه لو صدر الخير والشر عنه لكان عين التكثر فى امكانه وهو باطل فقالوا بوجود فاعلين أزليين يصدر عن أحدهما الخير وعن الثانى الشر فاعتقدوا بوجود الهين أحدهما نور ومبدأ الخير كله ويسمونه أرمزاد أو يزدان والثانى ظلام ومبدأ الشر كله ويسمونه اهرمان او اهرمن يكون الغالب منهما إله الشر متى كثرت الشرور ومنه يطلب الانسان الشر والبلاء لاعدائه ويغلب إله الخير متى كثرت الخيرات واليه يضرع الانسان فى طلب الخير لنفسه ولاحبائه وهؤلاء هم الثنوية وانتهى الامر بالمتأخرين أن صوروا الههم بصورة على كتفيها صورتا الخير والشر ولما نشأ زرادشت بن بيورشت المتوفى سنة ٤٨٧ قبل الميلاد أبطل القول بألهى النور والظلمة وعلمهم أن الاله واحد وانه خلق ملكى النور والظلام وان الشر فى العالم يصدر عن طبيعة المخلوقات وعند انتهاء العالم تبعث

الأموات للجزاء فيسجن ملك الظلام وأتباعه فى مكان ظلمة وعذاب أبدى ، أما ملك النور وأتباعه فيتنعمون خالدين فى مكان نور وسعادة وشرع لهم شرائع مدونة فى مجلدات والمجوس تقر بنبوته وأتباعه هم الزرادشتية ولم يكن للمجوس هياكل قبله وكانوا يسجدون للشمس لانهم يزعمون انها مسكن الاله وللنار لمشابهتها للشمس فى الحرارة والنور فأمرهم ببناء الهياكل حتى لايمنعهم مزاج الفلك عن العبادة فى أى وقت وجدد لهم بيوت النيران التى أخمدها منوشهر وأخبرهم انه عرج الى السماء ورأى الله فى سحابة لامعة وسمع صوته ثم هبط منها بقبس من النار اشعلت به النار المقدسة التى فى هياكلهم ولايجيزون للكهنة نفخها بأفواههم ومن يفعل ذلك فجزاؤه القتل ولا يقربها الكهنة الا وعلى وجوههم براقع لئلا يفسدوها بانفاسهم ولا يطفئونها ليلا ولا نهارا ووقودها حطب نظيف مقشور واذ انطفأت لاتجدد الا من نار هيكل آخر . وهو الذى شرع لهم عيد النيروز أى اليوم الجديد فى الاعتدال الربيعى وعيد المهرجان أى الخريف فى الاعتدال الخريفى . ولما ظهر مزدك الخارجى فى أيام قباذ ابن فيروز بن يزدجرد زعم انه يدعو الى شريعة ابراهيم واستحل المحارم والمنكرات وسوى بين الناس فى الاموال و الاملاك والنساء والعبيد والاماء حتى لا يكون لاحد على أحد فضل فى شئ وكان يأخذ امرأة هذا فيسلمها الى ذاك وكذا فى العبيد والاماء والاموال فكثر أتباعه وعظم شأنه . وكان مما شرعه تحريم ذبح الحيوان واكتفاء الانسان فى طعامه بما تنبت الارض وما يتولد من الحيوان كالبيض واللبن والسمن والجبن وأتباعهم المزدكية .

وقد دخلت المجوسية بلاد العرب قال ابن قتيبة « وكانت المجوسية فى تميم منهم زرارة بن عدس التميمى وابنه حاجب بن زرارة وكان تزوج ابنته ثم ندم (١) ومنهم الاقرع بن حابس (٢) كان مجوسيا وأبو سود جد وكيع بن حسان كان مجوسيا » .

---

(١) ندم لان زواج البنت كان من الفواحش عند قريش فى الجاهلية

(٢) أدرك الاسلام فأسلم وله صحبة

وفى تاريخ ابن الأثير قال بعض العلماء ان المجوسية كان يدين بها بعض العرب بالبحرين فكان زرارة بن عدس وابناه حاجب ولقيط والاقرع بن حابس وغيرهم مجوسا وان لقيط تزوج ابنته دختنوس وسماها بهذا الاسم الفارسى وقتل وهى زوج له فقال فى ذلك

ياليت شعرى عنك دختنوس اذا أتاها الخبر المرموس
أتحلق القرون أو تميس لا بل تميس انها عروس

وقال أبو زيد احمد بن سهل البلخى فى كتابه البدء والتاريخ (كانت المزدكية والمجوسية فى تميم) ومن آثار هذه الديانة فيهم نار الاستسقاء ونار الحلف وحلفهم بالرماد والنار

وأما الزندقة فكانت عند العرب أيضا : قال ابن قتيبة فى كتاب المعارف عند الكلام على أديان العرب فى الجاهلية وكانت الزندقة فى قريش أخذوها عن الحيرة . وقال البلخى فى كتاب البدء والتاريخ كانت الزندقة والتعطيل فى قريش وقال ابن الاثير فى تاريخه وفى أيام قباذ بن فيروز بن يزدجرد ملك الفرس خرج مزدك فدعا الناس الى الزندقة فأجابه قباذ الى ذلك ودعا قباذ المنذر بن ماء السماء عامله على الحيرة ونواحيها فامتنع فدعا الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار ملك نجد الى ذلك فاجابه فاستعمله على الحيرة وطرد المنذر من مملكته وفى القاموس (الزنديق بالكسر من الثنوية أو القائل بالنور والظلمة أو من لا يؤمن بالاخرة وبالربوبية أو من يبطن الكفر ويظهر الايمان أو هو معرب زن دين أى دين المرأة) وفى اللسان الزنديق القائل ببقاء الدهر فارسى معرب وهو بالفارسية زندكراى يقول بدوام الدهر والزندقة الضيق . وقيل الزنديق منه لانه ضيق على نفسه ورد ابن الكمال ماذهب اليه القاموس من انه معرب ذن دين وقال ان زند اسم كتاب أظهره مزدك رئيس الفرقة المزدكية من الفرق الثنوية ونقل بعضهم عن ابن خلدون انه قال ان زرادشت بن بيورشت الحكيم جاء بكتاب ادعاه وحيا وان كيستاسف وضع هذا الكتاب فى هيكل باصطخر ووكل به الهرامزة ومنع العامة من تعليمه ويسمى هذا الكتاب تستاه ثم

فسره زرادشت ومعنى تفسيره زند ثم فسر التفسير ثانيا وسماه زنديه فكانت هذه اللفظة أصلا لكلمة زنديق لان العرب عربتها هكذا واختصت فى عرف الشرع بمن يظهر الاسلام ويبطن الكفر والظاهر ان ابن قتيبة يريد بالزندقة احدى الفرق المجوسية من الثنوية أوالمزدكية أو الزرادشتيه بدليل قوله اخذوها عن الحيرة فان الحيرة وان كانت من بلاد الفرس سكانها وملوكها العرب دينهم دين الفرس أو دين المسيح ولو كان مراده من لايؤمن بالاخرة وبالربوبية لم يكن لاخذهامن الحيرة وجه فان كثيرا من قبائل العرب كانوا كذلك .

﴿ الموحدون من العرب ﴾

كانت العرب قبل البعثة عدا من كان على دين سماوى أو غير سماوى مشركين يعبدون الاصنام الا من أنار الله بصائرهم وهم أفراد قليلون وحدوا الله وعبدوه بما ارتضته عقولهم او بما أخذوه عن الشرائع السابقة ولا نخلى كتابنا من ذكر بعضهم فمنهم (تبع الاول) و(خالد بن سنان العبسى) و(حنظلة بن صفوان) وذكرت خبرهم فى المختلف فى نبوتهم من العرب

ومنهم (زيد بن عمرو بن نفيل بن عبدالعزى) وقد خلص هو وورقة بن نوفل ابن أسد وعبيد الله بن جحش بن ذئاب وعثمان بن الحويرث بن أسد يتناجون فيما حكاه ابن اسحاق وقد اجتمعت قريش يوما فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده ويدبرون به وكان ذلك عيدا لهم فى كل سنة فقال بعضهم لبعض تصادقوا ولا يكتم بعضكم على بعض قالوا أجل قال تعلموا والله ما قومكم على شيء لقد اخطئوا دين أبيهم ابراهيم ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع يا قوم التمسوا لانفسكم فانكم والله ما أنتم على شيء فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين ابراهيم فاما ورقة بن نوفل فاستحكم فى النصرانية واتبع الكتب من أهلها حتى علم علما من أهل الكتاب واما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين الى الحبشة فلما قدمها تنصر وفارق

الاسلام حتى هلك هناك نصرانيا واما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الاوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الاوثان ونهى عن قتل الموؤدة وقال اعبد رب ابراهيم ونادى قومه بعيب ما هم عليه . وروى البخارى فى صحيحه بسنده قال حدثنا موسى حدثنا سالم بن عبد الله عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم لقى زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح (١) قبل ان ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم الوحى فقدمت الى النبى صلى الله عليه وسلم سفره (٢) فأبى « أى زيد » أن يأكل منها ثم قال زيد انى لست آكل مما تذبحون على انصابكم ولا آكل الا ما ذكر اسم الله عليه (٣) وان زيد بن عمرو كان

---

(١) بلدح مكان فى طريق التنعيم ويقال هو واد (٢) تلك رواية البخارى فى المناقب وروايته فى باب ما ذبح على النصب والاصنام فقدم اليه رسول الله سفرة فيها لحم فأبى أن يأكل منها . وجمع ابن المنير بينهما بأن القوم الذين كانوا هناك قدموا السفرة للنبى فقدمها لزيد فقال زيد مخاطبا لاولئك القوم ما قال (٣) قال السهيلى فان قيل فالنبى عليه الصلاة والسلام كان أولى من زيد بهذه الفضيلة فالجواب انه ليس فى الحديث انه عليه السلام أكل منها وعلى تقدير ان يكون أكل فزيد انما كان يفعل ذلك برأى يراه لا بشرع متقدم وانما تقدم شرع ابراهيم بتحريم الميتة لا تحريم ما ذبح لغير الله وانما نزل تحريم ذلك فى الاسلام واذا كانت الاشياء قبل ورود الشرع حكمها الاباحة كما يقوله بعض الاصوليين فان كان أكل فقد فعل أمرا مباحا وان كان لم يأكل فلا اشكال وان قلنا على ما هو الاصح ان الاشياء قبل ورود الشرع لا توصف بالاباحة ولا بالتحريم فان الذبائح لها أصل فى تحليل الشرع المتقدم ولم يقدح فى هذا التحليل ما ابتدعوه من الذبح على النصب حتى جاء الاسلام وأنزل الله تعالى (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه)

يعيب على قريش ذبائحهم ويقول الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء وانبت لها من الارض الكلأ ثم تذبحونها على غير اسم الله انكارا لذلك واعظاما له . قال موسى حدثني سالم بن عبد الله ولا اعلمه الا تحدث به عن ابن عمر ان زيد ابن عمرو بن نفيل خرج الى الشام يسأل عن الدين ويتبعه فلقي عالما من اليهود فسأله عن دينهم فقال انى لعلى ان ادين دينكم فاخبرني فقال لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله قال زيد لا أفر الا من غضب الله ولا احمل من غضب الله شيئاً أبداً وانى استطيعه فهل تدلني على غيره قال ما اعلمه الا أن يكون حنيفاً قال زيد وما الحنيف قال دين ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولا يعبد الا الله فخرج زيد فلقي عالما من النصارى فذكر مثله فقال لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله قال ما أفر الا من لعنة الله ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئا أبدا وانا أستطيع فهل تدلني على غيره قال ما اعلمه الا أن يكون حنيفا قال وما الحنيف قال دين ابراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانيا ولا يعبد الا الله فلما رأى زيد قولهم فى ابراهيم عليه السلام خرج فلما برز رفع يديه فقال اللهم انى أشهد أنى على دين ابراهيم. وقال الليث كتب الى هشام عن أبيه عن أسماء بنت أبى بكر رضي الله عنهما قالت رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائما مسندا ظهره الى الكعبة يقول يا معشر قريش والله ما منكم على دين ابراهيم غيرى وكان يحيى الموؤدة يقول للرجل اذا أراد أن يقتل ابنته لا تقتلها أنا أكفيكها مؤنتها فيأخذها فاذا ترعرعت قال لابيها ان شئت دفعتها اليك وان شئت كفيتك مؤنتها وكان زيد بن عمرو بن نفيل يقول اللهم لو انى أعلم أى الوجوه أحب اليك عبدتك به ولكنى لا أعلمه ثم يسجد على راحته قال ابن اسحاق وحدثت أن ابنه سعيد وابن عمه عمر بن الخطاب قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر لزيد بن عمرو قال نعم فانه يبعث يوم القيامة أمة وحده ولم يكن زيد يأكل الميتة ولا الدم وهو القائل

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الارض تحمل صخرا ثقالا

دحاها فلما رآها استوت على الماء أرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهى لمن أسلمت له المزن تحمل عذبا زلالا
اذا هى سيقت الى بلدة أطاعت فصبت عليها سجالا

ولما خرج زيد بن عمرو بن نفيل من مكة يطلب دين ابراهيم سار يسأل الرهبان والاحبار حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها ثم أقبل فجال الشام كلها حتى اذا كان بأرض البلقاء أخبره كاهن انتهى اليه علم أهل النصرانية بأنه قد اظل زمان نبى يبعث من بلاد العرب بدين ابراهيم فرجع سريعا يريد مكة حتى اذا توسط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه فقال ورقة بن نوفل يرثيه

رشدت وانعمت ابن عمرو وانما(١) تجنبت تنورا من النار حاميا
بدينك ربا ليس رب كمثله وتركك أوثان الطواغى كما هيا
وادراكك الدين الذى قد طلبته ولم تك عن توحيد ربك ساهيا
فأصبحت فى دار كريم مقامها تعلل فيها بالكرامة لاهيا

ومن شعر زيد بن عمرو بن نفيل فى الالهيات قوله

عبادك يخطئون وأنت رب بكفيك المنايا والحتوم (٢)

(ومنهم قس بن ساعدة الايادى) كان من أقدم من آمن بالبعث من العرب وعمر طويلا وسمعه النبي عليه السلام قبل البعثة بعكاظ يقول فى خطبته ايها الناس اسمعوا وعوا فان وعيتم فانتفعوا انه من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت ان فى السماء لخبرا وان فى الارض لعبرا مهاد موضوع وسقف مرفوع ونجوم تمور وبحار لن تغور ليل داج وسماء ذات أبراج أقسم قس قسما حتما ان لله دينا هو أحب اليه من دينكم الذى أنتم عليه مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا فناموا ومنهم (سحنة بن خلف الجرهمى) وقدمنا قوله فى لوم عمرو بن لحى على وضع الاوثان حول الكعبة وحمله العرب على عبادتها ومنهم « المتلمس بن أمية

(١) رشدت وأنعمت أى رشدت وبالغت فى الرشد كما يقال أمعنت فى النظر وأنعمته (٢) الحتوم الاقضية

الكنانى) وكان يخطب بفناء الكعبة ويقول أطيعونى ترشدوا قالوا وما ذاك قال انكم تفردتم بالهة شتى وانى لا اعلم ما الله راض به وان الله رب هذه الالهة وانه ليجب أن يعبد وحده فتفرقت عنه العرب وزعموا أنه على دين بنى تميم ومنهم أجداده عليه السلام كعب بن لؤى وقصى وعبد مناف وهاشم وعبدالمطلب فاما (كعب) فقد كانت العرب تجتمع اليه فى كل يوم جمعة فيحثهم على صلة الارحام وحفظ العهد ومراعاة حق القرابة والتصدق على الفقراء والاحسان للايتام ويذكرهم بالموت وأهواله وينبئهم ببعثة رسول من عندالله وأما « قصى » فكان يأمر قومه بتعظيم الحرم وينهاهم عن عبادة الاوثان ويخبر قومه ببعثة نبى ينهى عن عبادة الاصنام (وأما عبد مناف) فكان يبغض الاصنام ويأمر قريشا بتقوى الله وصلة الرحم وأما (هاشم) فكان يؤدى الحقوق ويحمل ابن السبيل ويجانب عبادة الاوثان ويؤمن بالله واما (عبد المطلب بن هاشم) فقدمنا ايمانه بالبعث وتوحيده الله ورجوعه اليه فى قصة الفيل ومن الموحدين (وكبع بن سلمة بن زهير بن أياد) وكانت له ولاية أمر البيت بعد جرهم وبنى صرحا بأسفل مكة وجعل فيه أمة يقال لها حزورة وبها سميت حزورة مكة وجعل فى الصرح سلما فكان يرقاه ليخلو بنفسه ويتفكر فى ملكوت السموات والارض والعرب يعدونه من الصديقين ومن أقواله مرضعة أوفاطمة ووادعة أوقاصمة والقطيعة والفجيعة وصلة الرحم وحسن الكلام. ومن كلامه زعم ربكم ليجزين بالخير ثوابا وبالشر عقابا ان من فى الارض عبيد لمن فى السماء هلكت جرهم وربلت اياد وكذلك الصلاح والفساد فلما حضرته الوفاة جمع اياديا فقال لهم أسمعوا وصيتى الكلام كلمتان والامر بعد البيان من رشد فاتبعوه ومن غوى فارفضوه وكل شاة برجلها معلقة . ولما مات نعى على الجبال وفيه يقول بشير بن الحجير الايادى

ونحن أياد عبيد الالـــه ورهط مناجيه فى سلم
ونحن ولاة حجاب العتيـــق زمان النخاع على جرهم (١)

(١) هلك من جرهم بداه النخاع ثمانون كهلا فى ليلة واحدة سوى الشبان

ومنهم (قيس بن نشبة) قال فيه ابن سيدة فى المخصص كان منجما متفلسفا واعدا ببعثة الرسول فلما بعث عليه الصلاة والسلام أتاه فقال يا محمد ما كحلة فقال السماء فقال وما محلة فقال الارض فآمن به وقال لا يعرف هذا الا نبي وقال حين آمن

تابعت دين محمد ورضيته كل الرضا لامانتى ولدينى
ما زلت آمله وأرقب وقته والله قدر أنه يهدينى

ومنهم (عبدالطابخة بن ثعلب بن وبرة بن قضاعة) وروى له الشهرستانى فى الملل قوله

أدعوك يا ربى بما أنت أهله دعاء غريق قد تشبث بالعصم
لانك أهل الحمد والخير كله وذو الطول لم تعجل بسخط ولم تلم
وأنت القديم الاول الماجد الذى تبدأت خلق الناس فى أكتم العدم
وأنت الذى أحللتنى غيب ظلمة الى ظلمة من صلب آدم فى ظلم

ومنهم (علان بن شهاب التميمى) القائل فى الايمان بالله ويوم الدين

وعلمت أن الله جاز عبده يوم الحساب باحسن الاعمال

ومنهم زهير بن أبى سلمى وقد اعترف بوجود الله واثبت له الحياة والعلم والقدرة وأقر بالبعث والنشور والثواب والعقاب وكتابة الاعمال مما جاءت به الحنيفية فى قوله

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم

ومنهم (عبدالله بن تغلب بن وبرة بن قضاعة) وكان ينهج فى ديانته منهج الحنيفية

ومنهم عبيد بن الابرص الاسدى القائل

ولتأتين قبلى قرون جمة ترعى مخارم أيكة ولدودا
فالشمس طالعة وليل كاسف والنجم يجرى انحسا وسعودا
وليفنين هذا وذاك كلاهما الا الاله ووجهه المعبودا

ومنهم (عامر بن الظرب العدوانى) وقدمنا قوله فى البعث ومنهم (سيف بن ذى يزن) وقد بشر عبد المطلب بن هاشم ببعثته عليه الصلاة والسلام . ومنهم (أبو قيس

صرمة بن أبي أنس) قال ابن قتيبة وهو من بني النجار وكان ترهب ولبس المسوح وفارق الاوثان وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها ثم دخل بيتاً له فاتخذه مسجداً لايدخله طامث ولا جنب وقال أعبد رب ابراهيم فلما بعث رسول الله عليه الصلاة والسلام أسلم وحسن اسلامه وقال فى الجاهلية

سبحوا الله شرق كل صباح طلعت شمسه وكل هلال

يابنى الارحام لاتقطعوها وصلوها قصيرة من طوال

ومنهم (أمية بن أبي الصلت الثقفى) فقد حدث الزبير بن بكار عن عمه ان أمية نظر فى الجاهلية الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبدا وذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفية وحرم الخمر وتجنب الاوثان وصام والتمس الدين طمعا فى النبوة لانه علم ببعثة نبي من العرب وكان يرجو أن يكونه فلما بعث عليه السلام حسده وقال فيه النبي عليه السلام ، آمن شعره وكفر قلبه ، ومنهم (النابغة الجعدى حبان بن قيس بن عبد الله) شاعر قديم مفلق طويل البقاء فى الجاهلية والاسلام ، وأنكر فى الجاهلية الخمر وهجر الاوثان والازلام وقال فى الجاهلية قصيدته التى أولها :

الحمد لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

وكان يذكر دين ابراهيم والحنيفية ويصوم ويستغفر ويتوقع أشياء لعواقبها ولما جاء الاسلام وفد على النبى وأسلم وحسن اسلامه

﴿ اليهودية ﴾

اليهودية هى الشريعة المنزلة على موسى الكليم عليه السلام نسبة الى يهوذا أحد اسباط اسرائيل الذى تناسل منه أكثر الملوك ونشأت هذه الديانة فى مصر ولما لم يؤمن بها فرعون وقومه خرج موسى وبنو اسرائيل من مصر سنة ١٤٩١ قبل الميلاد وضرب بعصاه البحر فانشق لجاوزه موسى وأغرق فرعون وجيشه فوصلوا جبل طورسينا بعد خمسة وأربعين يوما من خروجهم من مصر ثم انتقلت اليهودية الى الاراضى المقدسة ومنها الى بلاد العرب وكان دخولها

اليها زمن موسى على ما رواه ابن زبالة بسنده عن عروة بن الزبير قال : كانت العماليق قد انتشروا فى البلاد فسكنوا مكة والحجاز كله وعتوا عتوا كبيرا فلما أظهر الله موسى عليه السلام على فرعون وطىء الشام أو بعث اليها بعثا فأهلك من بها من الكنعانيين ثم بعث بعثا آخر الى الحجاز للعماليق وأمرهم الا يستبقوا أحدا منهم بلغ الحلم فقدموا عليهم فأظهرهم الله فقتلوهم حتى انتهوا الى ملكهم الارقم بن أبى الارقم فقتلوه وأصابوا ابنا له وكان شابا من أحسن الناس فضنوا به عن القتل وقالوا نستحييه حتى نقدم به على نبى الله موسى عليه السلام فيرى فيه رأيه فأقبلوا وهو معهم فقبض الله موسى قبل قدوم الجيش فلما سمع بهم الناس تلقوهم فسألوهم فأخبروهم بالفتح وقالوا لم نستبق منهم الا هذا الفتى فانا لم نر شابا أحسن منه فتركناه حتى نقدم به على نبي الله موسى عليه السلام فيرى فيه رأيه فقالت لهم بنو اسرائيل ان هذه لمعصية منكم لما خالفتم أمر نبيكم لا والله لا تدخلون علينا بلادنا أبدا فقال الجيش ما بلد اذ منعتم بلادكم بخير من البلد الذى خرجتم منه وكان هذا أول سكنى اليهود الحجاز بعد العماليق . وفى الروض الانف عن أبى الفرج الاصبهانى ان السبب فى كون اليهود بالمدينة وهى وسط أرض العرب مع أن اليهود أصلهم من أرض كنعان ان بنى اسرائيل كانت تغير عليهم العماليق من أرض الحجاز وكانت منازلهم يثرب والجحفة الى مكة فشكت بنو اسرائيل ذلك الى موسى فوجه اليهم جيشا وذكر نحو ماتقدم ثم قال ولا أحسب هذا صحيحا لبعد عمر موسى عليه السلام وذكر الطبرى ان نزول بنى اسرائيل بالحجاز كان حين وطىء بختنصر بلادهم بالشأم وخرب بيت المقدس وذكر صاحب كتاب وفا الوفا اليهود الذين نزلوا المدينة فمنهم قريظة والنضير والنحام وهدل . وفى خطط المقريزى ان العرب تعلموا كبس الشهور من اليهود الذين نزلوا بيثرب من عهد شمويل نبي بنى اسرائيل وهو صمويل المتوفى سنة ١٠٥٧ قبل الميلاد وفى كتاب وفا الوفا باخبار دار المصطفى «وحكى ياقوت عن بعض علماء الحجاز من يهود ان سبب نزولهم الحجاز ان ملك الروم حين ظهر على بنى اسرائيل وملك الشام خطب

الى بنى هرون وفى دينهم ألا يزوجوا النصارى فخافوه وأنعموا له وسألوه ان يشرفهم باتيانه اليهم فأتاهم ففتكوا به وبمن معه ثم هربوا حتى لحقوا بالحجاز فأقاموا بها وزعم بنو قريظة ان الروم لما غلبوا على الشأم خرج قريظة والنضير وهدل هاربين من الشأم يريدون من كان بالحجاز من بنى اسرائيل فوجه ملك الروم فى طلبهم فاعجزوا رسله »

أما الذى ادخل اليهودية بلاد اليمن فهو تبع الاصغر أبو كرب تبان اسعد وقدمنا خبر ذلك عند الكلام على المختلف فى نبوتهم من العرب وقيل سبب تهود العرب غير ذلك . ولما خربت أورشليم على عهد طيطوس فى القرن الاول للميلاد نزح كثيرون من اليهود الى بلاد العرب وتوطنوها ونشروا تعاليم دينهم بين العرب واشهر من دان باليهودية من قبائل العرب بنو نمير وبنو كنانة وبنو الحارث بن كعب وبنو كندة ولعلها سرت اليهم من مجاورة اليهود لهم فى تيماء ويثرب وخيبر

ولم تتغلب اليهودية على الوثنية فى بلاد العرب لان كثيراً من احكامها مبنى على المشقة وتلك لا يساس لها قياد العربي ولانها وان أباحت قتال الوثنيين والقتال دين العربى الا انها لا تبيح الانتفاع بفنائهم بل تحرقها والعربى انما يقاتل لينتقم من عدوه فى نفسه وينتفع بماله واهله ومن طرق معاشهم الغزو والسلب والنهب وكانت بعض نساء العرب تنذر تهود ابنها فى الروض الانف (ان جملة من كان من اليهود بالمدينة وخيبر انما هم قريظة والنضير وبنو قينقاع غير أن فى الاوس والخزرج من قد تهود . وكان من نسائهم من تنذر اذا ولدت ان عاش ولدها أن تهوده لان اليهود عندهم كانوا أهل علم وكتاب ٢ وقد ذكر لبيد بن ربيعة صلاة اليهود من قصيدة له يصف رجلا غلب عليه النعاس

يلمس الاحلاس فى منزله بيديه كاليهودى المصل (١)

---

(١) فاعل يلمس : ضمير المجود فى البيت قبله وهو (ومجود من صبابات الكرى)والمجود الذى جاده النعاس وألح عليه حتى أخذ فنام و(الاحلاس) جمع حلس بالكسر وهو كساء رقيق يكون على ظهر البعير تحت رحله أى

قال البغدادى فى خزانة الادب « وقوله كاليهودى المصل . قال الطوسي فى شرحه كأنه يهودى يصلى فى جانب يسجد على جبينه هذا كلامه واليهودى يسجد على شق وجهه وأصل ذلك انهم لما نتق الجبل فوقهم قيل لهم اما أن تسجدوا واما أن يلقى عليكم فسجدوا على شق واحد مخافة أن يسقط عليهم الجبل فصار عندهم سنة الى اليوم »

﴿ النصرانية ﴾

هى دين المسيح بن مريم عليه السلام نسبة للناصرة اول قرية بث فيها عيسى دعوته فقال العرب ناصرى ونصرانى . وكان يقال للمسيح الناصرى ودخلت النصرانية بلاد العرب زمن الحواريين فقد نقل ان القديس توما أول من دعا اليها فى بلاد اليمن اثناء مسيره الى الهند وان بولس دعا اليها فى الشام فاعتنقها كثير من عرب الشام وفى بعض التواريخ المسيحية ان اوريجانوس فى القرن الثالث للميلاد زار أحد حكام العرب فهدى قبيلة للنصرانية وفى القرن الرابع سار موسى الراهب المصرى الى العرب ودعاهم للنصرانية فتنصرت زوجة حاكمهم المسماة موفية . وفى تاريخ القرون الوسطى ان عرب غسان تنصروا فى أيام القيصر والنتين وكان تنصرهم على يد عباد الصحراء بالشام ، (يعنى النساك) وقال ابن خلدون كان أهل نجران (هم بنو الحارث بن كعب من مذحج) من بين العرب يدينون بالنصرانية وكان لهم فضل فى الدين واستقامة أخذوا هذا الدين عن رجل سقط لهم من ملك التبعية يقال له سيمون من بقية اصحاب الحواريين) وكانت العرب تسمى عيسى عليه السلام ابيل الابيلين والابيل « الراهب أو الناسك والزاهد فى الدنيا » وشاهده قول عمرو بن عبد الجن .

أما والدماء المائرات تخالها على قمة العزى وبالنسر عند ما (١)

يطلب الاحلاس بيديه وهو لا يعقل من غلبة النعاس (٢) نسر صنم و« المائرات » المترددات من مار الدم على وجه الارض يمور اذا تردد و(قمة العزى) اعلاها و (العندم) البقم ودم الاخوين

وما سبح الرهبان فى كل ليلة أبيل الابيلين المسيح بن مريما (١)

لقد هزمنى عامر يوم لملع حساما اذا ماهز بالكف صمما (٢)

وكان ولدان النصارى يتبركون بالراهب الذى يجئ من بيت المقدس ويمسحه الذى هو لابسه وأخذ خيوط منه حتى يتمزق ثوبه وشاهده قول امرئ القيس الكندى يصف أدراك كلاب الصيد لفرسه

فأدركنه يأخذن بالساق والنسا كما شبرق الولدان ثوب المقدس (٣)

وكانت النصرانية تقيم اعيادها فى بلاد العرب فمنها يوم السباسب ويسمونه يوم السمانين . ويقال شعانين وعيد الفصح وهو مايتقدم عليه صوم الاربعين أنشد سيبويه لبعض العرب

صدت كما صد عما لايحل له ساق نصارى قبيل الفصح صوام

وكانوا فى الفصح يوقدون المشاعل قال اوس بن حجر يصف رجلا ويشبه سنانه بمصباح يوقده رئيس النصارى يوم الفصح

عليه كمصباح العزيز يشبه بفصح ويحشوه الذبال المفتلا

وقال عدى بن زيد يشير الى تعمير قنديل الفصح

بكروا على بسحرة فصبحتهم بأناء ذى كرم كقعب الحالب

بزجاجة ملئ اليدين كأنها قنديل فصح فى كنيسة راهب

ومن اعيادهم الدنح ذكره ابن سيده فى المخصص عن ابن دريد . وكانت الراهبات تلبس فى الاعياد الملاء والانسجة الطويلة الاذيال . قال امرؤ القيس يصف سربا من بقر الوحش

فآنست سرباً من بعيد كأنه رواهب عيد فى ملاء مهدب

ولم تستطع النصرانية أن تتغلب على الوثنية فى بلاد العرب لان تعاليمها تباين اخلاقهم الغريزية فمن من العرب يرضى اذا ضربته على خده

---

(١) سبح أى نزه وسمى الراهب أبيلا لتأبله وبعده عن النساء

(٢) يريد أن عامراً وجده حساما ذلك اليوم و« صمم » . مضى يقال صمم الرجل فى الامر اذا جد فيه (٣) شبرق جلده أى قطعه

الايمن ان يدبرلك خده الايسر لتصفعه عليه مرة أخرى بل قلد النصارى العرب فى كثير من أمورهم الدينية فكانوا يحجون ويعتمرون ألا أنهم كانوا يقفون فى الحج فى بطن محسر . وأنشد عليه السلام لما أفاض من عرفة الى مزدلفة وكان فى بطن محسر الذى كان موقف النصارى قول شاعر جاهلى

اليك تعدو قلقاً وضينها معترضاً فى بطنها جنينها
مخالفا دين النصارى دينها

يشير الى الناقة التى كان راكبها فى مسيره الى الحرم . وكانوا يعظمون الكعبة ووضعوا فيها صورة السيدة مريم وسيدنا عيسى مع ما وضع فيها من صور الملائكة والانبياء كموسى وابراهيم . وكانوا لايذكرون اسم الله على الذبيحة يقلدون فى ذلك مشركى العرب . وخالفوا تعاليم المسيحية فى شنهم الغارات وطلبهم الثارات لان العربى جعل رزقه فى ظل رمحه ولذلك لما قدم عدى بن حاتم الطائى على رسول الله عليه السلام قال له . أو لم تكن تسير فى قومك بالمرباع . فقال عدى . بلى . فقال عليه السلام فان ذلك لم يكن يحل لك فى دينك . فقال أجل . ذلك لان الدين الذى يحرم القتال لا يحل غنائم الحرب . وقد بين عقيدة العرب هذه جابر بن حنى التغلبى النصرانى فى قوله

وقد زعمت بهراء أن رماحنا رماح نصارى لا تخوض الى دم

وأشهر من تدين بالنصرانية من العرب ربيعة وبعض قضاعة وكأنهم تلقوها عن الروم فقد كانوا يكثرون التردد الى بلادهم للتجارة والغساسنة بالشام لمجاورتهم نصارى الروم ودان بالنصرانية كثير من بنى تغلب وتنوخ وحمير وطيىء وشاعت النصرانية فى قبائل شتى بالحيرة يقال لهم العباد « بكسر العين وتخفيف الباء » منهم عدى بن زيد العبادى . وتنصر ملوك الحيرة على عهد امرىء القيس الاول ابن عمرو فى أوائل القرن الرابع على قول . وقيل ان أول من تنصر منهم النعمان بن المنذر فى آخر القرن السادس . وفى سجل الكنيسة الشرقية أن الحيرة كان عليها أسقف سنة ٤١٠ ميلادية وأن ملكها

حمى النصرانية سنة «٤٢٠» ميلادية . وقيل أن ملوك الحيرة كانوا فى أواسط القرن السادس وثنيين وأن المنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء كان يقدم ذبائح من بنى آدم الى العزى وكان من بين نسائه امرأة من غسان اسمها هند الكبرى ام عمرو بن هند كانت مسيحية فبثت مبادىء النصرانية فى ابنها فنشأ نصرانياً . ويستظهر بعضهم أن النصرانية لم تثبت بعد عمرو المذكور . فلما مات عاد خليفته المنذر الى الوثنية ونشأ ابنه النعمان وثنياً حتى تنصر على يد الجاثليق صبر يشوع او على يد عدى بن زيد العبادى كما يقول مؤرخو العرب . وكان نصارى العرب يقولون بالطبيعة الواحدة للمسيح كاعتقاد اتباع يعقوب البرادعى اسقف اورفا سنة ٩٧٨ وهم اليعقوبيون ونسب هذا المذهب ليعقوب لانه قال به بعد ان كاد يندثر والا فقد سبقه بالقول بالطبيعة الواحدة ديوسقوروس وبرسوماس وزينياس وفلو وغيرهم من القائلين بأن طبيعتى المسيح قد اتحدتا حتى صارتا طبيعة واحدة . وكانت النصرانية شائعة فى بعض أمكنة من جزيرة العرب وذكر حاتم الطائى شيوعها بين ناب ودارة فى قوله

وانى لمزج للعلى على الوجا وما انا من خلانك ابنة عفزرا
ومازلت أسعى بين ناب ودارة بلحيان حتى خفت أن اتنصرا

والعجب لصاحب شعراء النصرانية كيف عد حاتما من النصارى مع نقله له قوله خفت أن أتنصرا ى خفت الدخول فى دين النصارى وذلك منه كثير فقد عد طرفة بن العبد والمتلمس نصرانيين مع نقله حلف طرفة بالنصب فى قوله

فأقسمت عند النصب انى لهالك بمتلفة ليست بغبط ولا خفض

ونقله حلف المتلمس بالانصاب فى قوله فى هجاء عمرو بن هند

اطردتنى حذر الهجاء ولا والله والانصاب لا تئل

وعد أعشى قيس فى النصارى مع نقله قوله يخاطب ناقته من قصيدة يمدح بها سيدنا رسول الله .

وآليت لا أرثى لها من كلالة ولا من حفى حتى تزور محمدا

نبي يرى ما لا ترون وذكره أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا
متى ماتناخى عند باب ابن هاشم تراحى وتلق من مكارمه يدا

﴿ الاسلام ﴾

كانت العرب فى الجاهلية فى شر حال من الاضطراب والفوضى سواء فى ذلك نظام الحكومة أو سياسة البيت أو غيرهما فكانت النفوس فى كل حين عرضة للسفك والاموال فى كل وقت معرضة للسلب والنهب لانهم كانوا شعوبا وقبائل تملى صدورهم بالاحقاد وكل قبيلة اما مقاتلة أو لقتال غيرها على قدم الاستعداد أخذاً بثأر مقتول عمداً أو خطأ او لهفوة لم يتناولها الصفح ولم يغفرها العفو وكانوا يورثون ابناءهم الاحقاد وناهيك بحرب داحس والغبراء التى لم تضع أوزارها الا بعد اربعين سنة وسببها أهون من أن يرمى فيه سهم عن كبد قوس او يجرد فيه حسام من غمد وكان الصعاليك المدلون بقوتهم يؤلفون عصابات للغارة على المراعى لسلب الانعام ورعاتها او على الاحياء اذا علموا أن المخلفين بها من الرجال لا يقدرون على الدفاع عن أنفسهم لنهب مابها من الاموال وأسر النساء والولدان والرجال وكان أسر النساء يجيز الاستمتاع بهن ولو كن ذوات أزواج أما الاسرى من الرجال فكانوا يكبلون بالسلاسل والاغلال وجزاؤهم القتل او الفداء وكم قتلوا من رجال وولدان او استذلوهم او باعوهم أرقاء وكان الفتى المدل بقوته او بمنعة عشيرته يرى الفتاة فيصبيه حسنها فيختطفها من أبيها او أخيها او غيرهما ولو كانت فى مدينة آهلة بالسكان بلا حياء ولا خجل كأنما يفعل امراً معروفاً غير منكر ومثل هذه الحادثة كان سبباً فى حلف الفضول وناهيك بقوم بلغ من اعتدائهم على المرأة انهم كانوا يكرهون فتياتهم على البغاء يبتغون عرض الحياة الدنيا

ولم يكن عندهم قانون للقصاص يمنع البغى ويقف فى سبيل الظلم بل كان اولياء الدم يقيمون على الخسف ان كانوا ضعفاء انتهازاً لسنوح الفرصة للاخذ بثارهم غدراً وان كانوا أقوياء اسرفوا فى القتل فربما قتلوا بظنة واحد العدد المديد والجماء الغفير قال شاعرهم

قتلنا سبعة بأبي لبيني وألحقنا الموالى بالصميم (١)

حتى قال مهلهل بن ربيعة وهو يثأر لاخيه كليب لبجير بن الحارث بن عباد وهو يقتله وكان غلاماً بؤبشسع نعل كليب فقال له بجيران رضيت بذلك بنو ضبيعة بن قيس رضيت فلما بلغ الحارث مقتله ولم يكن دخل فى حربهم قال نعم الغلام غلام اصلح بين ابنى وائل وباء بكليب فأبلغوه قول مهلهل اذ قتله فغضب وأدخل يده فى الحرب وقال

قربا مربط النعامة منى لقحت حرب وائل عن حيال (٢)
لا بجير أغنى قتيلا ولا رهـ ـط كليب تزاجروا عن ضلال
قربا مربط النعامة منى ان قتل الغلام بالشسع غالى
لم أكن من جناتها علم الله وانى بحرها اليوم صالى

أما سياستهم للبيت فكانت أشد خرقاً وآلم جرحاً وناهيك بقوم يدفنون بناتهم احياء خشية الفقر أو توهم العار ولقد بلغت القسوة بأحدهم أن ولدت امرأته فى غيبته بنتاً فخبأتها عند احد أقاربها لئلا تفتك بها يد القسوة حتى اذا ترعرعت واصبح مثلها قرة عين والدها وظنت انها قد أمنت قسوة ابيها وعدوانه وان عاطفة الابوة تحول بينه وبين وأدها احضرتها من مكانها وقد زينتها وقدمتها لابيها فسألها عنها فأخبرته خبرها فسكت منتهزاً فرصة غفلة أمها حتى اذا سنحت أخذ الفتاة فحفر لها حفرة ودفنها فيها حية وهى تمسح التراب عن لحيته وتقول ما الذى تفعله بى يا أبتى ذلك صنعهم بالبنات وهن برد الاكباد ومسرة الفؤاد

ولم يكن صنع بعضهم بالشيوخ والعجزة بأقل قسوة من ذلك فقد روى عنهم انهم كانوا اذا تبرموا بشيخ تركوه وارتحلوا ليموت أو يأكله الذئب أو حملوه على بعير تقود يسقطه فيموت فيستريحوا منه وجاء فى امثالهم (أهون هالك

---

(١) أى قتلنا ساداتهم فصار الموالى سادة (٢) النعامة اسم فرس الشاعر و(لقحت) حملت و (الحيال) ان تضرب الناقة فلا تحمل وضربه مثلا لما تولد عن الحرب وانتج منها من الامور التى لم تكن تحتسب بعد ذلك

شيخ يقادبه البعير) وقولهم (أهون هالك عجوز فى سنة جدب) نعم لم يكن هذا العمل عاما فيهم

أما حالة العرب الدينية فما قدمناه فى هذا الكتاب تعلم ان الدهماء منهم قد انغمسوا فى عبادة الاوثان واتخذوا آلهة شتى ووصل من انحطاطهم فى احكام العقل أن اتخذوا الهاً من حيس فلما جاعوا أكلوه وصاروا يتعرفون الخير والشر من أمور دنياهم بالاستقسام بالازلام لا بما فيها من نفع وضرر وكانوا على بقية من دين ابراهيم خلطوها بالوثنية خلطا غير محاسنها وطمس معالمها فأهلوا فى الحج للاصنام وأشركوها فى التلبية وجعلوا صلاتهم عند البيت الحرام وهى التى شرعها الله فى دين ابراهيم خالصة لله وخضوعاً له مكاء وتصدية (١) ولم تكن اليهودية ولا النصرانية عندهم خيرا من اختهما الحنيفية . أما اليهودية فقد عبثت بها أيدى الاحبار يحرفون فيها الكلم عن مواضعه فغيروا كثيراً من الاحكام التى شرعها الله بالحيل التى استحلوها والاهواء التى ابتدعوها ومالوا للتشبيه وغلت فرقة منهم فيه فقالوا عزير ابن الله وتأولوا التوراة بالرأى والهوى واخبروا ان تأويلهم من عند الله ولقد نعى عليهم القرآن ذلك بقوله (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا) ومنهم من وقف عند الفاظ التوراة دون أن يبين معانيها ويشرح المراد منها وعم الذين وصفهم القرآن بقوله (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين). أما النصرانية فقد انحطت فى بلاد العرب الى درك الوثنية فكانوا يتركون ذكر اسم الله عمدا على

(١) مكا الرجل يمكو اذا جمع بين يديه وصفر فيهما و(التصدية) التصفيق قال ابن عطيه والذى مر بى من اثر العرب فى غير ما ديوان ان المكاء والتصدية كانا من فعل العرب قديما قبل الاسلام على جهة التقرب به وكان مخرمة بن قيس بن عبد مناف يصفر عند البيت فيسمع من حراء وكانت قريش تطوف بالبيت وهم عراة يصفقون ويصفرون

الذبيحة مجاراة للمشركين واتخذوا فى كنائسهم الاصنام اما لانهم لم يتجردوا من الوثنية وأما لترغيب الوثنيين فى المسيحية كما اتخذوا الصنم كعيباً فى كنيسة القليس وكانت تعاليم المسيحية لاتناسب اخلاق العربى الطامح بطبيعته الى الفخر والخيلاء والسفك لايعرف القعود على الضيم ولا الصبر على أذى المؤذين وصفح الصافعين فنبذ أوامرها اكثرهم حتى لم يبق لهم من المسيحية الا اسمها ولا من النصرانية الا وسمها • نبـذوا على اختلاف اديانهم الاوامر الالهية فاكلوا الربا أضعافا مضاعفة وعدوا شرب الخمور ولعب الميسر من مفاخرهم التى يفاخرون بها

هذا حال العرب أما غيرهم من الامم في ذلك العصر فلم يكونوا أحسن حالا منهم فكان من رحمة الله بالعالم ان يرسل اليه رسولا يخرج الناس من الظلمات الى النور فبعث محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عليه الصلاة والسلام بدين الاسلام • جاء الاسلام ينشر لواء السلام ويضع الدعائم الثابتة لنظام الاجتماع ويزيل الأثرة من النفوس ويفهم كل فرد انه جزء من جماعة لايصلح الا بصلاحها ولا تصلح الا بصلاحه (المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا) سوى بين الناس في القصاص ووضع من الحدود ما يكفل سعادة كل انسان ويصونه من غائلة غيره وبين مايجب على كل فرد اداؤه والقيام به من الواجبات التى فيها صلاحه وحياة المجتمع وبث فى النفوس روح العطف والرفق والتسامح حتى فى أحوال الخلاف فى الدين والعقيدة قال تعالى (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) صان الاسلام حقوق المرأة ونهض بها الى أوج لم تصل اليه فى أمة من الامم ولا فى شريعة من الشرائع فاعاد لها حقها المسلوب وجعـل لها وحدها حق التصرف فى مالها ونفسها وسوى بينها وبين الرجل في التكاليف وغيرها ولم يميز الرجل عنها الا فى الاحكام التى لايقدر عليها اكثر افراد جنسها كالجهاد أو لامر اقتضى تمييزه عنها . والمتصدى لمعرفة ذلك يراه مفصلا فى الكتب التي تبين اسرار التشريع • نهى الاسلام عن كراهة البنات وعد وأدهن أمرا إداً فقال (واذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت) وقال واذا بشر احدهم بالانثى

ظل وجهه مسودا وهو كظيم

كثيرا ما وصى النبي الكريم بالمرأة ودعا الرجال للرفق بها والاحسان اليها . احاط الاسلام الرق بسياج يحميه من عبث العابثين وسلب السالبين فلم يضرب الرق الا على الاسير الذى حارب المسلمين للايقاع بهم والاذلال بدينهم ثم طفق الشارع الحكيم يدعو الي عتق الارقاء بمختلف الوسائل حتي جعله قربة القرب وكفارة تطهر بها النفوس وتغسل بها أدران الذنوب فجعل العتق واجبا في كفارة القتل والظهار واليمين والافطار في رمضان وندب اليه في غير ذلك مرضاة لله تعالى فقال عليه السلام ايما مؤمن اعتق مؤمنا في الدنيا اعتق الله تعالى بكل عضو منه عضوا منه من النار . سوى الاسلام بين الناس في الحقوق فلم يميز جنسا من الاجناس البشرية على آخر وضرب على أيدي الامراء والرؤساء ليرفعوا عن رءوس العامة عصا الاستبداد وينزعوا من اعناقهم غل الاستعباد وقضى على التعاليم التى ابتدعها رؤساء الاديان من وجود الوساطة بين العبد وربه فاجتث بذلك أصلا من أكبر أصول الوثنية . فلقد كان يتوسل لذلك الوسيط بأنواع التعظيم ويمت له بضروب التكريم مما لا يليق الا بالخالق الحكيم أمر كل واحد بالاجتهاد والعمل بما يصل اليه اجتهاده فيما لم ينزل فيه حكم بين ولا نص صريح فلم يجعل الدين بذلك بعيد التناول علي احد ومقصورا على طائفة تطاع فيما تدعيه دينا من غير تبصر ولا تفكير * نبه العقل من نومه واحترمه وامر بالنظر والتفكر فزق بذلك حجب الاوهام التى اسدلها رؤساء الدين علي اهله اذ زعموا ان الدين عدو العقل وما يثمره العقل الا ما كان تفسيرا لكتاب منزل * جعل الاخلاق مصدر حياة الامم والسر في بقائها قال تعالي (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وقال (ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) نهى عن الكسل والخمول والمسكنة التى زعمها رؤساء الدين من الدين فأمر بالعمل كل قادر عليه وأباح لكل انسان ان يتمتع بما شاء من الطيبات (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) حث على التعليم ورغب فيه ودعا لارشاد العامة

الى الصراط المستقيم والطريق القويم قال الله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) . أمر الاغنياء ان يجعلوا من اموالهم حقا معلوما للفقراء تطييبا لنفوسهم وسدا لعوزهم وعطفا على ابناء جنسهم ليستأصل من نفوس الفقراء الحسد والضغينة على الاغنياء . لم يترك الاسلام فضيلة من الفضائل الا أمر بها ولا سنة من سنن الترقى والاصلاح الا قررها ولا رزيلة يعود وبالها على المجتمع الا نهى عنها وقبحها . اعاد الاسلام للحنيفية شبابها وجدد عهدها وجردها من الوثنية التي أبلت محاسنها وغيرت معالمها فالاسلام دين ابراهيم حكي ذلك القرآن فى غير ما آية فقال (ان ابراهيم كان قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لانعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا اليك ان اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) وقال تعالى (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين) وقال تعالى (وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس) والآيات فى ذلك كثيرة ولذلك قال ابن حزم (وكان الذى ينتحله الصابئون اقدم الاديان على وجه الارض الى ان أحدثوا فيه الحوادث وبدلوا شرائعه فبعث الله عز وجل اليهم ابراهيم خليله بدين الاسلام الذى نحن عليه الآن وتصحيح ما أفسدوه بالحنيفية السمحة التى أتى بها محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله تعالى) ومعنى مجيء الاسلام بالحنيفية دين ابراهيم دون اليهودية أو النصرانية مع ان أصول الشرائع من حيث الالهيات وتحريم المتحقق ضرره وتقرير أمهات مكارم الاخلاق واحدة أن الاسلام قرر الاحكام والعبادات التى شرعت فى دين ابراهيم بعد أن جردها من الوثنية التى الصقت بها وهذا مرماتراه من موافقة الاسلام للاحكام التى كان العرب عليها وذكرناها مفصلة فى هذا الكتاب . لم يقف الاسلام عندما شرع فى دين ابراهيم بل زاد كثيرا من الاحكام التى

اقتضاها الزمان فانقذ الاحوال الاجتماعية من براثن الفوضي التى فتكت بها أيام الجاهلية وأصبح الاسلام بنظامه الدقيق المحكم صالحا لكل زمان ولكل أمة لايزيده رقي العقول فى المدنية إلا ثباتا ولا تنمو العلوم الاجتماعية والكونية الا لتفهم برهانا بعد برهان على سداده ولطيف حكمته . كيف لايكون كذلك وهو الدين الخالد التالد الذى أراد الله أن يتعبد به الخلق الي قيام الساعة قال تعالى (ما كان محمد أبا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شئ عليما)

وكان الفراغ من تأليفه وتهذيبه وترتيبه صباح يوم الجمعة رابع شهر رمضان المعظم سنة ثلثمائة واحدى وأربعين بعد الالف من الهجرة الشريفة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية